إدغار موران

التّفكير الشّامل

الإنسان وكونه

ترجمة: المنتصر الحملي

صفحة

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم
Tarjim Initiative

التّفكير الشّامل

الإنسان وكونه

PENSER GLOBAL

L'homme et son univers

Edgar Morin

التّفكير الشّامل

الإنسان وكونه

إدغار موران

ترجمة: المنتصر الحملي

صفحة ٧

صفحة ٧

كتاب
التفكير الشامل
الإنسان وكونه
المؤلّف
إدغار موران

الطّبعة الأولى:2022
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-08-5
رقم الإيداع
1444/2325

حقوق التّرجمة العربيّة محفوظة
© صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان : الجبيل ، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

جميع الحقوق محفوظة و لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of publisher.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

إهداء المترجم

إلى روح شهيد الحركة التّقدّميّة العالميّة، رمز النّضال في سبيل إنسانيّة تعدّديّة، حرّة، كريمة ومتضامنة، الزّعيم الوطني التّونسي شكري بلعيد.

- يجدر بي أن أتوجّه بشكر خاصّ إلى الدّكتور والباحث التّونسيّ في علم الاجتماع الثّقافيّ والأستاذ الجامعيّ منير السّعيداني، على ما تفضّل به، بكلّ رحابة صدر ورقيّ أدبيّ وأخلاقيّ ومعرفيّ، من ملاحظات سديدة وتصويبات دقيقة أفادتني كثيرا في مراجعتي الأخيرة لقسم هامّ من هذه التّرجمة، وذلك على الرّغم من مشاغله الكثيرة والتزاماته العديدة.

الفهرس

توطئة (ميشال فيفيوركا) 9

1- الكائن البشريّ والثّالوث البيولوجي والاجتماعيّ
والأنتروبولوجيّ 13

2- الفرد البشريّ 27

3- ظهور الكائن البشريّ 43

4- الإنسان في الكون 51

5- الحقبة العالميّة 73

6- المستقبل: محتمَل وغير محتمَل 97

7- التّفكير المركّب والتّفكير الشّامل 125

توطئة

ميشال فيفيوركا

لا أريد أن أضع نفسي في موضع سخيف بتقديم الكاتب إدغار موران، صاحب الأعمال الضّخمة، والّذي يتمتّع بشهرة وتقدير عالميين. فأنا واحد من جيل السّتّينيات الّذي أعجب كثيرا بالاستطلاع الإتنولوجيّ الرّائع الّذي أنجزه ببلوزيفاي Plozévet، في بريتاني Bretagne، وروايته لقصّة طرده من الحزب الشّيوعيّ (في مؤلّفه نقد ذاتيّ Autocritique الّذي أعيد طبعه عام 2012)، وتحليله لنجوم السّينما وشائعات أورليون Orléans المعادية للسّاميّة، وفهمه لحدث ماي 68 - هذه «الفجوة La brèche» وفق تعبيره في كتاب اشترك في تأليفه مع كلود لوفور Claude Lefort وكورنيليوس كاستورياديس Cornelius Castoriadis الّذي. استعمل اسما مستعارا. وبفضله، تعلّمت على غرار الكثيرين في وقت لاحق، أن أفكّر في التّركيب، وفي «المنهج» وفقا لعنوان مجموعة له تتألّف من مجلّدات ستّة. سأكتفي بالقول إنّ إدغار موران يُعتبر، مع صديقه ألان

توران Alain Touraine، أكثر علماء الاجتماع الفرنسيين شبابا من النّاحية الفكريّة، لأنّ فكره متجدّد وعميق وأصيل أكثر من أيّ وقت مضى، وهو ما يتجلّى لنا في كتابه هذا.

ولكنّني أودّ أن أقول كلمة عن أصل هذا الكتاب، وعن المعنى الّذي أعطيه أنا له. فقبل سنتين تحديدا، وفي سياق الاحتفال بمرور خمسين سنة على ميلاد مؤسّسة بيت علوم الإنسان Fondation Maison FMSH) des sciences de l'homme)، اتّصل بي إدغار موران ذات مساء وعبّر لي عن رغبته في أن يكون عضوا في معهد الدّراسات العالميّة الّذي كنت قد بعثته مؤخّرا في صلب المؤسّسة، وهو معهد منظّم على نمط الكراسي الجامعيّة، بحيث تتعهّد بكلّ كرسيّ منها شخصيّة علميّة قويّة تتمحور من حولها حزمة من الأنشطة والمبادرات: من بحث في معناه الدّقيق، وحلقات دراسيّة، وندوات، ومجموعات عمل، واستقبال بحوث الدّكتوراه الأجنبيّة، وما إلى ذلك. ولكنّ إدغار موران لم يعد في سنّ يسمح له بتأطير بحوث الدّكتوراه أو السّهر شخصيّا على تنظيم حياة علميّة جماعيّة، لذلك اتّفقنا على ضرورة أن نوجد له المكان الّذي هو به خليق، ولكن في صيغة أخرى غير صيغة الكرسيّ.

ومن هنا جاءت الفكرة الّتي نالت إعجابه والمتمثّلة في عقد مؤتمرات كبرى تحت عنوان: «**التّفكير الشّامل**» – لقد كان هذا التّعبير دليلا على التقائنا، وعلامة خاصّة تميّز معهدنا، بما أنّنا قد

مهرنا به أعمالَ ندوتنا في الذّكرى السّنويّة الخمسين لمؤسّسة بيت علوم الإنسان - وفي أن يتولّى بنفسه افتتاح دورتها الأولى.

عندما أحطتُ فيليب بوتري، رئيس جامعة باريس الأولى بانتيون-السّوربون، علما بهذا المشروع، أعرب لي متحمّسا عن موافقته على أن تكون الجامعة شريكة في هذه المحاضرات الّتي افتتحناها معا في مقرّاتها، وكان إدغار موران حينئذ في أفضل حالاته، وأمام طلبة غصّت بهم القاعة.

ونزولا عند رغبتي، أعاد إدغار موران صياغة نصّ محاضراته السّتّ ليتسنّى تحويلها إلى كتاب، ولكنّه رغب مع ذلك في أن يحتفظ الكتاب نوعا ما بشيء من طابعها الشّفويّ و«الفوضويّ» وفق تعبيره. وهكذا حافظ نصُّه على حيويّته الأصليّة، وعلى سحر التّعبير الشّفويّ وثرائه، وتمّت صياغته في نفس الوقت ليكون موجّها لجمهور من القرّاء وليس لجمهور من المستمعين.

إنّ العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في أيّامنا هذه قد صارت أقلّ فكريّة في منحاها وأكثر علميّة في نزعتها ممّا كانت عليه في الماضي، ولكنّني لست من أولئك الّذين ينتابهم القلق من جرّاء دخولها إلى الحقبة الرّقميّة، لأنّني أعرف أنّه من الممكن أن نجني فوائد جمّة من البيانات الهائلة ومن مصادر الإنترنت واسعة النّطاق. كما أنّني لا أعتقد أنّ الممكنات الّتي تتيحها الإنترنت وقدرةَ الخوارزميات التنبّؤية وقوّةَ الأدوات المعلوماتيّة الحاليّة تفضي بالضّرورة، أو

حصريًا، إلى الخضوع لسلطات جديدة وإلى الرّقابة المعمَّمة.

إنّنا نعيش في عالم يهدّده الهوس الاستحواذيّ بالأرقام والبيانات الكمّيّة، أو ما يسمّيه بيتيريم سوروكين Pitirim Sorokin الفصام الكمّي quantophrénie. ولكنّ هذا لا يجب أن يجعلنا نتقاعس عن التّفكير والتّأمّل؛ بل إنّه من الضّروريّ أن نظلّ متحفّزين ومتأهّبين، وأن نكون قادرين في خضم الدّوّامة المعاصرة الّتي تتصادم فيها الأفكار دون أن نعرف دائما كيفيّة فرزها، على تمييز تلك الّتي يمكن أن تحمل إلينا إضاءة مفيدة ورغبة في تحسين قدرتنا الخاصّة على التّفكير. وهذا ما سيجده القارئ في هذا الكتاب، وبوسعه أن يستمتع به دون أدنى تحفّظ.

(1)

الكائن البشريّ والثّالوث البيولوجي والاجتماعيّ والأنتروبولوجيّ

- **من هو الكائن البشريّ؟**

إنّ هذا السّؤال الّذي يهمّ أيّ شخص وكلّ النّاس يتجنّبه نظامنا التّعليميّ تماما، سواء أكان ذلك في التّعليم الابتدائيّ أم الثّانويّ أم العالي. صحيح أنّ هناك تخصّصا يسمّى الأنتروبولوجيا، إلاّ أنّه يقتصر على دراسة المجتمعات الأثريّة المسمّاة بـ «الخالية من الكتابة».

ولكنّ هذه الكلمة الجميلة «أنتروبولوجيا»، كانت تعني في القرن التّاسع عشر المعرفة الّتي تسمح لنا بالإلمام بمختلف المعارف المتعلّقة بالكائن البشريّ، بما في ذلك المعارف البيولوجيّة والفيزيائيّة. غير أنّ الكائن البشريّ في وحدته وتنوّعه، هو اليوم مغيّب عن معرفتنا وتعليمنا، ومهمَل ومنسيّ. في هذا السّياق، أرى أنّ استعمال كلمة «الإنسان» مناسب وقاصر في آن واحد، فلماذا هو قاصر؟ أوّلا وقبل كلّ شيء لأنّ الكلمة تعيّن الفرد

وتقصي المجتمع، وثانيا لأنّها تنطوي على الرّغم من حيادها الظّاهريّ على دلالة ذكوريّة وتطمس الجانب المؤنّث بطريقة ما.

ولهذا السّبب، أنا أفضّل استعمال تعبير «الكائن البشريّ» بدلا من عبارة «الإنسان».

- التّعريف الثّالوثيّ للكائن البشريّ

التّعريف الأوّل للكائن البشريّ هو تعريف ثالوثيّ، وذلك لأنّه يشتمل على الفرد مثلما يشتمل على المجتمع البشريّ والنّوع البيولوجيّ، أو بالأحرى النّوع البشريّ. وإذا كنت أذكر هذا الثّالوث فذلك لكي أشير إلى وجود علاقة لا تنفصم عراها بين هذه المحاور الثّلاثة. إذ لا يمكننا القول إنّ الكائن البشريّ هو فردٌ بنسبة 33 ٪، ومجتمعٌ بنسبة 33 ٪، وبيولوجيا بنسبة 33 ٪. بل إنّ ما يمكننا قوله هو أنّ 100 ٪ من الكائن البشريّ هو فرديّ و100٪ منه اجتماعيّ و100 ٪ منه بيولوجيّ. لماذا؟ لأنّ الكائن البشريّ من منظور اجتماعيّ هو بالتّأكيد عنصرٌ صغيرٌ في المجتمع، وأنّ هذا المجتمع في كلّيته موجود في الكائن البشريّ منذ ولادته، لأنّ الثّقافة واللّغة والأخلاق والأفكار تنفذ إلى ذهن الكائن البشريّ الصّغير طوال فترة نموّه. إنّه إذن يتغذّى بالمجتمع ومن خلاله.

أن يكون الكلّ موجودا في الجزء فهذا ليس بالأمر الغريب على الإطلاق إذا ما علمنا أنّ كلّ خليّة في جسمنا، وعلى سبيل

المثال في بشَرتنا، تشتمل على الموروث الجينيّ بكلّيته. صحيح أنّ ما يظهر من هذا الموروث هو جزء واحد فحسب، أي ذاك الذي يتمّ تحديثه في هذه الخليّة، ولكنّ الكلّ بوصفه كذلك موجود في هذا الجزء الصّغير.

هذا ما يمكن أن نسمّيه المبدأ الهولوغرامي le principe hologrammatique. ففي الصّورة الفوتوغرافيّة، تشير كلّ نقطة منها إلى جزء من الشّيء الّذي تمثّله، إلى سيّارة على سبيل المثال. أمّا الصّورة ثلاثيّة الأبعاد (الهولوغراميّة)، فكلّ نقطة فيها تشتمل تقريبا على الشّيء المصوَّرِ بأكمله. فليس الجزء فقط هو الموجود في الكلّ، ولكنّ الكلّ أيضا موجود في الجزء، وهذا هو السّبب الّذي يجعلنا نقول إنّ الكائن البشريّ هو في الوقت نفسه فرديّ بنسبة 100 ٪ واجتماعيّ بنسبة 100 ٪ أيضا.

ينطبق الأمر نفسه على الكائن البشريّ إذا ما نظرنا إليه من منظور بيولوجيّ. فالفرد البشريّ هو لحظة زمنيّة، هو جزء صغير مندرج ضمن نوع ما وفي منظومة تناسليّة لا تتوقّف. وهذا الجزء من عمليّة شاملة يحتوي على الكلّ: فجميع الجينات موجودة في الدّماغ مثلما هي موجودة في الجسم كلّه. وهنا يصدق نفس المبدأ: فليس بوسعنا أن نقول إنّنا أفراد بنسبة 100 ٪ فقط، بل علينا أن نقول أيضا نحن أعضاء في النّوع البشريّ بنسبة 100 ٪. ولكنّ العلاقة بين الفرديّ والاجتماعيّ والبيولوجيّ لا تتوقّف عند هذا الحدّ.

- تكاثر النّوع

لننظر إلى العلاقة بين الفرد ومنظومة النّوع التّناسليّة على سبيل المثال. إنّه من الضّروريّ لاستمرار هذه المنظومة، أن يتزاوج شخصان من جنسين مختلفين لينجبا نسلا سيستمرّ هو نفسه في القيام بهذه العمليّة.

بتعبير آخر، إنّنا نتاج العمليّة التّناسليّة للنّوع البشريّ، ولكنّنا في الوقت نفسه منتِجوها. وهذا يعني أنّنا منتَجون ومنتِجون في آن واحد.

هذا ما يفضي بنا إلى إدراج فكرة أخرى، هي فكرة الحلقة الّتي سمّيتها حلقة ارتداديّة boucle récursive. وهي عمليّة تكون فيها المنتَجات ضروريّة لإنتاج نفسها. ممّا يعني أنّ المنتَجات البشريّة الفرديّة الّتي ينتجها النّوع البشريّ هي ضروريّة لإنتاج النّوع ذاته. وهكذا نعثر مرّة أخرى على نفس علاقة التّوازن الّتي رأيناها في المجتمع: وهي أنّ الفرد منتِج للمجتمع الّذي يُنتِجه.

إنّ المجتمع هو إفراز لتفاعلات لا حصر لها بين الأفراد، ولكنّه يحمل أيضا جملة من السّمات المحدَّدة الخاصّة به، مثل الثّقافة واللّسان وسلطة الدّولة. وهذه السّمات موجودة وفقا لما يقتضيه كلٌّ أسمّيه المنظومة. وتتمثّل هذا المنظومة فيما يلي: ليس الكلّ مجرّد جمع بين الأجزاء، بل إنّ هناك صفات وخصائص جديدة تتشكّل على مستوى الكلّ نسمّيها انبثاقات. إنّ جزيء

الماء، على سبيل المثال، يتميّز بصفات خاصّة به لا نجدها في ذرّات الهيدروجين والأوكسيجين الّتي تشكّله. فالكائن الحيّ، وحتّى البكتيريا، يتشكّل من مجموعة من التّفاعلات بين جزيئات فيزيائيّة وأخرى كيميائيّة، ولكن لهذا الكائن الحيّ صفات لا نجدها على مستوى الجزيئات الفيزيائيّة والكيميائيّة، ومنها القدرة على التّكاثر الذّاتيّ والتّنظيم الذّاتيّ والإدراك وما إلى ذلك.

إنّ اللّسان والثّقافة، السّمتين المميّزتين لمجتمع مّا، سيتمّ زرعهما في كلّ فرد، وهكذا يدخل الكلُّ في الجزء. ولكنّ هذا الكلّ هو نتاج للتّفاعلات المستمرّة بين الأفراد. فلو أنّ قنبلة نوويّة نظيفة، على سبيل المثال، تضرب مجتمعنا، فإنّها لن تلحق أيّ ضرر بمعالم معيّنة على غرار الإليزيه وقصر البوربون ومدرسة الدّراسات العليا والسّوربون، ولكنّها لن تبقي كائنا بشريا واحدا على قيد الحياة، ولن يظلّ المجتمع بالتّالي قائم الذّات. إنّنا، نحن الأفراد، من يجدّدون المجتمع ويخلقونه من جديد عبر تفاعلاتهم. وهذا يعني كذلك أنّ المجتمع يخلق أفرادا بشريين تماما بما أنّه يحقّق اكتمالهم إذ يمنحهم هذين العنصرين اللّذين هما اللّسان والثّقافة.

وهكذا لا يمكننا أن نفصل بين هذه المفاهيم الثّلاثة، أي بين الجوانب الفرديّة والاجتماعيّة والبيولوجيّة. فكلّ واحد منها لا يستطيع أن يعمل دون الآخر، وخلف البساطة الظّاهريّة لمثل هذا الثّلاثيّ هناك في الحقيقة تفاعلات معقّدة. ولكنّ تعليمنا لا يزال، رغم ذلك، يتجاهل هذا الكائن البشريّ ثلاثيّ الأبعاد.

- تمثّل الكائن البشريّ

يثوي داخل منظومتنا التّعليميّة فصلٌ مأساويّ بين هذه القطبيات الأساسيّة الثّلاث الّتي يتكوّن منها الكائن البشريّ. فهذا الأخير يُدرَّس بشكل منفصل من منظور البيولوجيا ومنظور العلوم الإنسانيّة. وأفضل مثال على ذلك هو طريقة تعاملها مع الدّماغ، إذ يدرَّس من خلال علم الحياة وبالخصوص علم الأعصاب، في حين يتمُّ إلحاقُ النّفس بمجال علم النّفس. وهكذا يتمّ الفصل بين العلوم الصّعبة والعلوم الإنسانيّة عند تحليل نفس المكوّن الّذي يشكّل الكائن البشريّ.

من جهتها، تقوم العلوم الإنسانيّة في الغالب بتفكيك العلاقة بين الفرد والمجتمع بنفس الطّريقة؛ فالنّزعة المهيمنة في علم الاجتماع هي اعتبار أنّ الأفراد خاضعون تماما للحتميّة، وكأنّهم مجرّد دمى خاضعة للمسارات الاجتماعيّة، ووضعهم الاجتماعيّ، وطبقتهم، وعاداتهم، وما إلى ذلك. وهكذا يكون الفرد في علم الاجتماع عرضة للذّوبان في مقابل ذوبان المجتمع في علم النّفس الّذي نستثني منه علم النّفس الاجتماعيّ، وهو شعبة هجينة تحاول المصالحة قدر المستطاع بين هذين الميدانين المتباعدين. وتُعزى هذه المصالحة، كحال بعض المصالحات الأخرى، إلى الأحداث الفارقة الّتي جدّت في القرن الماضي وأفضت إلى إعادة النّظر في الحدود القائمة بين علم النّفس وعلم الاجتماع.

ولكنّ العلوم الإنسانيّة بصفة عامّة هي علوم مجزّأة، وهذا ما يحدّ بقدر كبير من درجة التّواصل فيما بينها ويؤدّي فعليّا إلى تفكيك فكرة الإنسان تفكيكا كاملا.

إنّ الجهود المبذولة للرّبط بين الكائن البشريّ والعالم الطّبيعيّ هي مع الأسف جهود اختزاليّة وتبسيطيّة للغاية ولا تدرك ما في طبيعة الكائن البشريّ من تعقيد.

لنأخذ على سبيل المثال علم الاجتماع البيولوجيّ الّذي يزعم أنّه يفهم المجتمعات البشريّة انطلاقا ممّا يجري في المجتمعات الحيوانيّة على مستوى الجينات بالخصوص؛ إنّ هذا العلم يركّز على تحديد السّلوكيات المشروطة جينيّا. فالجينات، كما ورد في كتاب «الجينة الأنانيّة Le Gène égoïste» لريتشارد دوكنز Richard Dawkins، هي الّتي تتحكّم فينا، أشخاصا وأفرادا ومجتمعا، وما نحن إلاّ ظواهر فرعيّة ومجرّد دمى. وبهذه الطّريقة نصل إلى السّخافة التّالية الّتي مفادها أنّ هناك جزيئة كيميائيّة إضافيّة macromolécule chimique مجهّزة بسلطة شبه إلهيّة. فضلا عن ذلك، جرت محاولات عديدة للمماثلة بين أداء المجتمعات البشريّة وأداء المجتمعات الحيوانيّة على غرارا مجتمعات الشّمبانزي أو البابوان، ولكنّ الحاصل هنا بطبيعة الحال هو عمليّة تبسيط مخلّ، لأنّ هذه المماثلة لا تأخذ بعين الاعتبار الجانب النّوعيّ في المجتمع البشريّ.

فنحن، ولئن كنّا ننتسب بطبيعة الحال إلى الرّئيسيّات على غرار أقاربنا الغوريلاّ، ولئن ورثنا عن الثّدييات هذا التّواصل الوجدانيّ بين الأمّ وصغيرها، ولئن كنّا أيضا من الفقاريات، إلاّ أنّ هذا ليس كلّ شيء. فنحن في المقام الأوّل مجموعة منظّمة من الخلايا، وخلايانا هي شقيقات وبنات الخلايا الحيّة الأولى الّتي ظهرت على هذه الأرض من ثلاثة إلى أربعة مليار سنة قبل الآن.

بتعبير آخر، إنّنا نحمل فينا تاريخ الحياة، ليس تاريخَ كلّ الكائنات الحيّة بطبيعة الحال بما أنّنا لا نحمل فينا تاريخ الحشرات ولا الزّهور ولا النّباتات، ولكنّنا نحمل فينا التّاريخ الّذي يعود إلى الخلايا الأولى.

- **طمس علاقتنا بالطّبيعة**

لقد أدركنا في وقت متأخّر جدّا هذا الأمر في العالم الغربيّ، والسّبب هو أنّ علاقتنا بالطّبيعة الأمّ الموجودة في العديد من الثّقافات الأخرى قد تمّ طمسها.

إنّ ديانتنا هي المتسّببة الأولى في ذلك، بما أنّ الإنسان وفقا للإنجيل قد خُلق على صورة الرّبّ الإله، وحظي وفقا للنّصوص المقدّسة بخلق منفصل عن جميع الحيوانات الأخرى. وهو إذا كان مؤمنا، حسب المسيحيّة، فسوف يحظى بالانبعاث الّذي ستعقبه الحياة الأبديّة، في الوقت الّذي حُكِم فيه على بقيّة الكائنات الحيّة

بالتّحلّل. ثمّ أصبح الاعتقاد في الفصل بين الإنسان والطّبيعة أكثر وضوحا في فترة نهضة المجتمع والحضارة الغربيّين، وخصوصا في القرن السّابع عشر.

فديكارت يعتبر أنّ الحيوان آلة بلا عقل ولا روح، ويفصل فصلا كاملا بين الإنسان الّذي يملك عقلا والحيوان الّذي يفتقر إليه. وبإمكان الإنسان، حسب قوله دائما، أن يصبح بفضل العلم سيّدا على الطّبيعة ومالكا لها.

إنّ هذه الفكرة تحمل في طيّاتها كلّ سيرورة تطوّر العالم الاقتصاديّ الرّأسماليّ التّجاريّ المهيمن على ثقافتنا، وقد استمرّ حضورها كبيرا حتّى عند ماركس، ولو أنّ هذا الأخير كان على دراية بالواقع البشريّ المزدوج منذ أن كتب في أعماله الشّبابيّة المبدأ الّذي اعتمدتُه من ناحيتي والّذي صاغه كما يلي: «سوف تشمل علوم الإنسان علوم الطّبيعة مثلما سوف تشمل علوم الطّبيعة علوم الإنسان».

ونحن بدورنا، تشملنا هذه الطّبيعة.

- **بروز الوعي الإيكولوجيّ**

لقد استغرق إدراك العلاقة الحميمة بيننا وبين الطّبيعة، أي ما يمكن أن نسميّه الوعي الإيكولوجيّ، كلّ العقود الأخيرة من القرن العشرين، وتحديدا بداية من عام 1970.

إنّ الوعي الإيكولوجيّ - وأنا لا أعني به هنا الحركة السّياسيّة الإيكولوجيّة الحاليّة الّتي يوضع فيها هذا الوعي إلى حدّ ما بين قوسين – هو جزء من علم جديد تبلور حول فكرة المنظومة البيئيّة، والّتي مفادها أنّه في بيئة معيّنة، تخلق التّفاعلات بين النّباتات والحيوانات والمناخ والجغرافيا تنظيما تلقائيّا ذاتيّا، وأنّ مجمل المنظومات البيئيّة الموجودة على كوكبنا ستشكّل ما يسمّى المحيطَ الحيويّ، هذا المحيط الّذي يحيط بنا وظننّا أنّه بإمكاننا إخضاعه والسّيطرة عليه. ولكن، كلّما ازدادت سيطرتنا عليه تسبّبنا أكثر في مزيد تدهوره، ومن ثمّ في تدهور ظروف عيشنا. وكلّما اعتقدنا داخل هذه العلاقة أننّا قد امتلكنا الطّبيعة، إلاّ واستحوذت علينا قوّةٌ تدفعنا إلى أقصى درجات التّطرّف، أي إلى التّدمير الذّاتيّ.

ولكنّنا بدأنا، بفضل اكتسابنا الوعي البيئيّ، نحاول أن نفهم علاقتنا بالطّبيعة الحيّة وكذلك بالطّبيعة الفيزيائيّة، وهو جانب آخر من جوانب تعقيدنا بوصفنا كائنات بشريّة.

كان الاكتشاف المتمثّل في أنّ الكائن الحيّ يتشكّل بأكمله، بدءا من الخليّة الواحدة ذاتها، من مادّة فيزيائيّة كيمياويّة، أحدَ أهمّ المنجزات العلميّة خلال القرن العشرين. إنّه أحد الجسور الرّابطة بين التّطوّر الفيزيائيّ والتّطوّر البيولوجيّ؛ فقد تبيّن في عام 1952 استنادا إلى اكتشاف واطسون Watson برعاية كريك Crick أنّ الرّسالة الوراثيّة مكتوبة في عنصر كيميائيّ يسمّى الحمض

النّوويّ، وأنّ هذا الحمض ينتقل عن طريق الحمض الرّيبي النّوويّ إلى البروتينات. وهذا يعني، خلافا لما كان يعتقده بعض علماء الأحياء الّذين عُرفوا باسم الحيويين والّذين كانوا يظنّون أنّ الحياة مخلوقة من مادّة خاصّة تتمتّع بقوّة حيويّة، أنّه لا وجود لمادّة حيّة بمعزل عن مادّة العالم الجامد.

يتعارض هذا الاكتشاف أيضا مع موقف الاختزاليين الّذين كانوا يظنّون أنّ الكائن الحيّ يمكن فهمه من منظور فيزيائيّ كيميائيّ بحت، وتجاهلوا على الدّوام الحقيقة الّتي مفادها أنّه من التّنظيم المعقّد لهذه المادّة المكوّنة من بروتينات وأحماض نوويّة تنشأ خصائص محدّدة تشكّل خاصّيات الحياة، ونعني بهذه الخاصّيات كلاّ من التّنظيم الذّاتيّ والتّكاثر الذّاتيّ والإدراك. ولئن بدا أنّ الاختزاليين قد انتصروا، إلاّ أنّهم في الحقيقة قد انهزموا، مثلما انهزم الحيويون.

- **قصّة التّطوّر الفيزيائيّ الكيميائيّ**

إنّ النّزعة التّنظيميّة l'organisationnisme هي الّتي انتصرت، وهي تعني أنّ تنظيما مؤلّفا من عناصر مختلفة يفرز ما نسمّيه انبثاقات émergences، أي صفات وخصائص جديدة، مثل جزيء الماء. فالحياة ليست جوهرا، بل هي مجموعة من الانبثاقات، لأنّ الخليّة الحيّة الأولى قد تشكّلت انطلاقا من ثورة

في التّنظيم نجم عنها فيما بعد تنظيم جديد أكثر تعقيدا من تلك الجزيئات الضّخمة. كما أدّى هذا التّنظيم إلى التّناسل الذّاتيّ والتّنظيم الذّاتيّ وإلى حدّ أدنى من الملكات الإدراكيّة الّتي تسمح بالتّعرّف في بيئة معيّنة على الخطر أو على الغذاء؛ فما نسمّيه حياة إذن هو كلّ هذه الصّفات. وبخصوص الطّابع المدهش لانبثاق الحياة، مازال الكثير من النّاس، عقب جاك مونو Jacques Monod، يعتقدون أنّ ظهور الكائن الحيّ الأوّل هو حدث نادر جدّا وغير معقول، غير معقول بقدر لا معقوليّة قيام قرد يكتب على آلة كاتبة بتلحين إحدى قصائد شكسبير، إذا جاز التّشبيه.

في هذا الصّدد، عرفنا منذ فترة قريبة أنّ ذرّات الكربون الضّروريّة لنشأة الكائن الحيّ قد انبثقت من التقاء ثلاث ذرّات من الهيليوم داخل بؤرة ملتهبة لنجم سابق من حيث ظهوره على ظهور شمسنا، وأنّه أثناء تحطّمه انطلقت منه هذه الذّرّات الّتي وجدت نفسها في المجمع الّذي وُلد منه كوكبنا.

حين نفهم أنّنا قد تشكّلنا من جزيئات هي نفسها قد تجمّعت انطلاقا من ذرّات، وأنّ هذه الذّرّات قد اجتمعت انطلاقا من جُسيمات، وأنّ هذه الجسيمات قد ظهرت ربّما منذ اللّحظات الأولى لنشأة الكون، حينها سندرك أنّ قصّة هذا العالم الذي يبلغ عمره ثلاثة عشر مليار سنة موجودة فينا؛ أي أنّ الكلّ موجود بطريقة ما في الجزء، وأنّ المغامرة البشريّة الّتي لا نعلم إلى أين تسير هي جزء من مغامرة كونيّة لا نعرف أيضا إلى أين تمضي.

هذا ما يؤكّد لنا مبدأ الصّورة الهولوغراميّة hologrammatique الّذي مفاده أنّنا متّحدون مع كوننا، وأنّنا جزء من عالمنا الفيزيائيّ البيولوجيّ الكونيّ، وأنّنا في الوقت نفسه متميّزون عنه بثقافتنا ووعينا بهويّتنا البيولوجيّة والأنتروبولوجيّة المزدوجة، وبهويّتنا الأنتروبولوجيّة والبيولوجيّة -الكونية المزدوجة أيضا.

(2)

الفرد البشريّ

بوصفنا كائنات اجتماعيّة، فإنّنا نحمل داخلنا المجتمع بثقافته وقوانينه ولغته وعاداته، وبالتّالي فإنّ بين الكائن الفرديّ والمجتمع توجد علاقة لا تنفصم عراها أبدا، وتتميّز هذه العلاقة بأنّها مركَّبة.

أفضل مثال على ذلك هذا النّقاش حول النّوع الاجتماعيّ والجنس الّذي جرى مؤخّرا بين علماء أحياء يرون أنّ جنس الفرد هو الّذي يحدّد ذكورته أو أنوثته، من النّواحي الفيزيولوجيّة والتّشريحيّة والذّهنيّة من جهة، وعلماء آخرين من الجهة المقابلة يعتبرون أنّ الاختلاف بينهما نابع من الثّقافة. ولكن، بما أنّ الكائن البشريّ كائن مركّب، فإنّه في الآن نفسه نوع وجنس وليس هذا أو ذاك فقط، ولا يتعلّق الأمر هنا بمعرفة ما إذا كنّا جنسا بنسبة 50 ٪ ونوعا اجتماعيّا بنسبة 50 ٪، بل بالأحرى برؤية العلاقة المتشابكة بين هذين المكوّنين.

- من هو الفرد؟

إنّ المجتمع يكيّفنا، ولكنّنا قادرون بدورنا، أفرادا كنّا أم جماعات، على تحويل المجتمع عن طريق الاختراعات والانقلابات والثّورات. وأذكّر مرّة أخرى بأنّه لا يجب على المجتمع أن ينسى أنّ وجوده لا يتحقّق إلاّ بالأفراد، كما لا يجب على هؤلاء أن ينسوا أنّهم لا يتحقّقون باعتبارهم بشرا إلاّ بالمجتمع. لذلك يمتلك الفرد صفة الذّات Sujet، الّتي يعبّر عنها في اللّسان الفرنسيّ ضميرُ المتكلّم المفرد الأوّل أنا je: أنا أقول أنا، أي أحدّد نفسي بصفتي ذاتا. وعندما أقول أنا، فإنّني أؤكّد ذاتي، وأضع نفسي في مركز العالم. إنّ قول أنا يعني القيام بفعل متمركز حول الذّات، والأمر المهمّ هنا هو أنّ كلّ كائن بشريّ يحمل في ذاته، على غرار أيّ كائن حيّ، هذا المبدأ المتمركز على الذّات الّذي يدفعه إلى الدّفاع عن نفسه وحمايتها وتنميتها وتغذيتها وإعطاء الأولويّة لوجوده الفرديّ.

ولكن، بالإضافة إلى مبدأ المركزيّة الذّاتيّة هذا المتمثّل في إثبات الأنا، هناك مبدأ آخر مكمّل للأوّل ومتعارض معه تماما، هو مبدأ النحن. هذا النحن، الّذي لا يقلّ غريزيّة عن الأنا، يظهر منذ الولادة. ومنذ لحظة مجيئه إلى العالم، ستزداد حاجته إلى الرّعاية والحنان والمداعبة والهدهدة في كنف الشّعور بالحبّ في كنف العائلة برفقة الأبوين والإخوة والأخوات، وربّما سوف يكبر هذا الشّعور في وقت لاحق ويتوسّع ليشمل الوطن والحزب والدّين

والأصدقاء والأحبّة. فالعيش هو حركة دائمة نتنقّل داخلها من الأنا إلى النحن ومن النحن إلى الأنا، في اتّجاه أقصى الحالات الّتي يمكن فيها للأنا أن تضحّي بنفسها في سبيل النحن وفي سبيل الدّفاع عن ذويها وعن وطنها وآرائها السّياسيّة وديانتها، ونحو أقصى الحالات العكسيّة الّتي يكون فيها النحن هو المضحّى به، ويتمّ تجاهل الآخرين أو إهمالهم من أجل مصلحة الأنا الحيويّة أو الماديّة.

حتّى في هذه اللّحظة التّاريخيّة من حضارتنا، الّتي نعيش فيها حالة من التضخّم في نموّ الأنا ومن الفرديّة بكلّ ما يترتّب عنهما من إيجابيات مثل الاستقلاليّة والمسؤوليّة، وما قد تحمله في ثناياها من سلبيات كالأنانيّة وانعدام التّضامن، حتّى في هذه اللّحظة يظلّ الطّموح الأوّل للكائن البشريّ، أكان واعيا بذلك أم لا، هو ازدهار أناه في صلب النحن. هذان هما قطبا الذّاتيّة الضّروريّان للغاية لفهم هذا الطّموح.

- **من الإنسان العاقل إلى الإنسان اللاّعب**

لقد تمّ تعريف الكائن البشريّ على أنّه إنسان عاقل Homo sapiens، أي أنّه إنسان يحمل عقلا. لا يمكن أن ننكر أنّ العقلانيّة قد تطوّرت على مدى التّاريخ البشريّ، ولكنّ الإنسان العاقل ليس إلاّ قطبا واحدا من قطبين، على اعتبار أنّ القطب

الثّاني هو الإنسان المعتوه Homo demens، الإنسان الهذيانيّ.

ليس الهذيان أو الجنون مجرّد حالة قصوى مقصورة على أولئك المساكين الّذين يوضعون في مصحّات عقليّة، بل إنّهما يظهران عند كلّ نوبة غضب، عند كلّ حالة سخط، عند كلّ جنون عظمة، عند كلّ ما كان اليونانيون القدامى يسمّونه المغالاة: كما هو الحال في غطرسة الغزاة وطموحهم المفرط على غرار شخصيات مثل جنكيز خان، ونابليون، وهتلر، وغيرهم. بين هاتين القطبيّتين المتعارضتين، أي بين العقل والجنون، هناك الوجدان، هناك المشاعر. فقد أظهر اكتشاف مهمّ تمّ عن طريق تصوير دماغيّ قام به كلّ من أنطونيو داماسيو Antonio Damasio وجان ديدييه فانسون Jean-Didier Vincent، أنّه عندما يكون مركز عقليّ معيّن في حالة نشاط فإنّه يقوم في الوقت نفسه بوضع مركز انفعاليّ عاطفيّ في حالة حركة، ممّا يعني أنّه ليس هناك بعل بدون عاطفة. فعالم الرّياضيات على سبيل المثال، الّذي يكرّس كلّ وقته للرّياضيات، هو شخص له شغف بهذا التّخصّص، في حين أنّ العقل المحض هو عقل على حافة الجنون، لأنّه جليديّ وغفل من أيّ شعور. أمّا الوجدان، فإنّه يتحرّك بطبيعة الحال ما بين قطب العقل وقطب الهذيان والجنون، ويمضي تبعا لدرجة حدّته نحو أحد القطبين؛ فإذا اهتاج الوجدان دون أن يكون خاضعا لرقابة العقل فسوف ينتهي الأمر بالمرء إلى الهذيان. وأفضل مثال على ذلك هو الشّغف. بإمكان الحبّ أن يكون

شغوفا، ولكنّه إذا افتقر إلى نور طفيف من العقل فسوف يصبح هذيانا. ليس الشّغف في حدّ ذاته هو الهذيانيّ، بل غياب التّباري وتبادل الرّقابة بينه وبين العقل، لذلك يحسن بنا في مجال النّشاط البشريّ أن نلتزم بالمبدأ التّالي المتمثّل في أنّه ليس هناك عقل دون شغف، وخصوصا شغف الصّداقة والحبّ، وليس هناك شغفٌ بلا عقل. لا بدّ إذن أن تكون الحياة البشريّة إبحارا عسيرا ومحفوفا بالمخاطر في غمار هذه الجدليّة.

تمّ تعريف الكائن البشريّ أيضا في مستوى معيّن من تطوّره، وبالاستناد إلى كفاءته التّقنيّة، بأنّه إنسان صانع Homo faber، أي أنّه يصنع الأدوات ويستخدمها. ومع ذلك، نجد آثارا لمعتقدات يمكن أن نسمّيها أسطوريّة أو دينيّة تعود إلى عصور ما قبل التّاريخ، وحتّى إلى ابن عمّنا الأقدم في التّاريخ، أي إلى الإنسان النّياندرتاليّ Neandertal: فقد تمّ دفنُ الميّت برفقة طعامه وأسلحته، ممّا يعني أنّه سوف يعيش حياة أخرى بعد الموت، هي حياة الطّيف، حياة الشّبيه، حياة الشّبح. وفي حالات أخرى، تمّ دفنه وهو متقوقع على جسده في هيئة جنين، وكأنّه موعود بالولادة من جديد. لقد درستُ في كتابي «الإنسان والموت»[1] المعتقدات الأساسيّة للبشريّة، فألفيت من بينها ذاك المعتقد المتمثّل في أنّ طيفنا أو شبيهنا غير المادّيّ يظلّ حيّا حتّى بعد موتنا. ثمّ وجدت في الحضارات القديمة كالحضارة اليونانيّة

(1) .Correa, 1951, Seuil, « Points Essais », 1976.

القديمة أنّ هذا الطّيف سوف يعيش في العوالم السّفليّة الّتي هي مملكة الموتى. فعندما مات أخيل ظلّ يعيش في العوالم السّفليّة، ولكنّها كانت حياة بائسة جدّا ومنحطّة، فقد خاطب أخيل أوديسيوس حين جاء لزيارته قائلا: «إنّه لَأَحَبُّ إليّ أن أكون إسكافيّا فقيرا على الأرض، من أن أكون أخيلَ العظيمَ في العوالم السّفليّة.»

تطوّر الاعتقاد في الانبعاث الأبديّ في حياة جديدة بشكل مختلف في الهند وفي الدّيانات الآسيويّة، ثمّ ظهرت لاحقا ديانات الخلاص والبعث كالمسيحيّة المظفّرة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة، كما أنّ الحضارات الأكثر تطوّرا من النّاحية التّقنيّة هي نفسها لم تَقضِ على طابعها الدّينيّ، بل إنّنا نرى كيف أنّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وهو البلد الأكثر تطوّرا في العالم، يحتلّ الرّبّ فيها مكانة هامّة جدّا في الدّستور وفي الحياة السّياسيّة والمدنيّة. فالتّقنية إذن لا تقصي الأسطورة ولا الدّين، بل إنّه بإمكاننا أن نرى كيف أنّ الإنسان كلّما تعزّزت سلطته أو تقنيته ازداد عجزه في مواجهة الألم والخطب والموت، وأنّ الكثير من الدّيانات لم تندثر عن العالم التّقنيّ الحاليّ، بل على العكس من ذلك تشهد نهضة حتّى أنّه بوسعنا القول إنّ أنماطا من الدّين قد ظهرت للوجود وهي جاهلة بأنّها دينيّة في جوهرها، كالشّيوعيّة بالنّسبة إلى أبناء جيلي على سبيل المثال. فقد كانت الشّيوعيّة أملا كبيرا في أنّ عالما جديدا من الوئام سيقوم على وجه الأرض، وكانت ميزتها الكبرى أنّها قد

وعدت بخلاص دنيويّ في الحياة، وليس بخلاص أخرويّ بعد الموت. ولكن من سوء حظّ الشّيوعيّة، أنّنا قد تحقّقنا على الأرض من أنّها لم تتمكّن من تحقيق وعدها، ممّا جعل إخفاقها في ذلك يفتح المجال لعودة الدّيانات القديمة.

إنّ الآلهة، على غرار عشتار ومولوخ وآلهتنا المعاصرة، هي نتاج لمجتمع فكريّ معيّن... ولكنّ الأمر غير العاديّ هو أنّ الآلهة الّتي ما كان ليكون لها وجود لولا العقول البشريّة الّتي أفرزتها، قد أصبحت متعالية علينا وخارجة عن سيطرتنا نحن الّذين صنعناها، فباتت تأمرنا وتطلب منّا أن نقتُل غيرنا أو على العكس من ذلك أن نموت نحن من أجلها. لقد خلقت العقولُ البشريّةُ إذن محيطا فكريّا un noosphère، من كائنات صنعها العقل، ثمّ أصبحت هذه الكائنات الفكريّة حقيقة مطلقة ومهيمنة. يمكننا حتّى القول إنّ الأفكار والإيديولوجيات بمقدورها أن تمارس نفس هذه السّلطة علينا، فتأمرنا وتملي علينا واجباتنا. وبعبارة أخرى، إنّ الجانب الأسطوريّ في الإنسان مذهل تماما مثل الجانب التّقنيّ الّذي أفرز اختراعات مذهلة. فليس من الممكن إذن أن نفصل بين الإنسان الصّانع والإنسان الدّينيّ Homo religious أو الإنسان الميثولوجيّ Homo mythologicous.

لقد أدّى التّطوّر والتّقدّم بداية من القرن الثّامن عشر إلى تصوّر تعريف آخر للكائن البشريّ، ألا وهو الإنسان الاقتصاديّ Homo economicus؛ إنّنا نعيش حاليّا في حضارة صارت فيها

المصلحة الخاصّة والشّخصيّة تكتسي أهمّيّة متزايدة ولاسيما في إطار سياسة قد ابتلعها الاقتصاد بالكامل، وهو ليس بأيّ اقتصاد، بل اقتصاد لا يتكلّم إلاّ بلغة المصالح. ومع ذلك، هناك بعد آخر يخلخل هذا الإثبات؛ فالإنسان وفق تعبير جوهان يوزنغا Johan Huizinga هو أيضا إنسان لاعب Homo ludens أو إنسان اللّعب، وفي اللّعب لا نلعب فقط من أجل الرّبح، بل نلعب أيضا ونحن نجازف أحيانا بخسارة كلّ شيء، ولا نلعب فقط من أجل المال، فقد نلعب لمجرّد اللّعب. هناك ما يسمّيه جورج باتاي Georges Bataille «الإنفاق»، في كتابه الرّائع «**الجزء الملعون** La Part maudite» الّذي يتناول البعد الخفيّ في الحياة الاقتصاديّة، وقد بيّن فيه أنّ حياتنا الاقتصاديّة لا تشتمل فقط على الاستهلاك consommation، بل على الاحتراق consumation أيضا. فنحن نتحمّس ونحترق، وما هذه القدرة على التّحمّس أثناء مشاهدة مقابلة في كرة القدم أو عرض مسرحيّ جميل أو شريط سينمائيّ أو في مناسبة احتفاليّة، إلاّ بُعد آخر من أبعاد الكائن البشريّ، بُعد لا يقلّ أهمّيّة عن الإنسان الاقتصاديّ الّذي لا تعترف سياساتنا اليوم بأحد سواه، ومن هنا يمكن أن نتبيّن تعقيدا آخر في الكائن البشريّ.

إنّ ما يثير الاهتمام في هذه الطّرق الجديدة لرؤية الإنسان العاقل والصّانع والاقتصاديّ والمجنون والدّينيّ والميثولوجيّ واللاّعب، هو أنّه بوسعنا أن نستخلص منها فكرة القطبيّة الثّنائيّة

الجوهريّة لتفسير هذا الثّراء الّذي يتميّز به الفرد.

- **نثر الحياة وشعرها**

في سبيل البقاء على قيد الحياة وكسب الرّزق، تفرض علينا القطبيّة النّثريّة للحياة أن نقوم بكلّ شيء ونحن مكرهين، ولكنّ الحياة تحتوي على قطبيّة أخرى هي القطبيّة الشّعريّة، وهي تلك الّتي تزدهر فيها ذواتنا ونتقاسم العيش معا وتجمعنا لحظات من الوئام والفرح، لحظات تمنحنا إيّاها المحبّة والصّداقة والبهجة. هذا ما معنى العيش شعريّا. في حين أنّ الوجه النّثريّ للحياة لا يسمح لنا إلاّ بالبقاء على قيد الحياة. قد يكون تناولنا الطّعامَ سلوكا نثريّا محضا، بيد أنّ نوعيّة الموادّ الغذائيّة الّتي نأكلها، وكيفيّة طبخها والاشتراك في أكلها، كلّ هذا يوفّر لنا متعا من شأنها أن تجعل من وجبات طعامنا لحظات شاعريّة؛ باختصار، إنّ كلّ ما يجعلنا نشعر بالجمال أو بالجودة يساهم في تحقيق السّمة الشّعريّة للحياة.

بإمكاننا أن ننتبه إلى أنّ هاجس الكائن البشريّ ليس أن يكون قادرا على البقاء على قيد الحياة في عمله ومن خلاله فقط، بل على تحقيق ازدهاره الذّاتيّ والتّمكّن من العيش شعريّا أيضا، حتّى في العمل إن أمكن. ولهذا لا يجب على الفكر السّياسيّ في المستقبل أن يتجاهل حاجيات الكائن البشريّ الشّعريّة. وكي ندرك هذا

الواقع البشريّ المركّب والمتناقض، يجب علينا الابتعاد عن التّقسيمات والحواجز الّتي يضعها التّعليم، ولا ينبغي فقط توحيد المعارف الّتي تأتي بها العلوم الطّبيعيّة والعلوم الإنسانيّة الرّامية إلى فهم الكائن البشريّ، بل لا بدّ أيضا من دراسة الأدب لأنّه هو نفسه أداة من أدوات المعرفة.

إنّ الرّوايات، وبصورة أدقّ تلك «الرّوايات العظيمة»، تطلعنا على ما لا يمكن لأيّ علم أن يطلعنا عليه. فهي تقدّم لنا كائنات بشريّة تعيش في عالمها الذّاتيّ وأحاسيسها وأفكارها وبيئتها وعلاقاتها ومشاعرها ووسطها الاجتماعيّ كما نجدها عند بلزاك، أو في سياقها التّاريخيّ كما تجسّدها رواية «الحرب والسّلام» لتولستوي، أو كائنات بكلّ تعقيداتها الباطنيّة كما يعرضها علينا دوستويفسكي أو بروست. إنّ الرّوايات العظيمة وسائل لمعرفة الكائن البشريّ، لذلك لا ينبغي أن يُنظَر إلى الرّواية على أنّها موضوع للمتعة الجماليّة فحسب، وإنّما لا بدّ من اعتبارها وسيلة للفهم أيضا. ففي اللّعبة الدّائرة بين المتخيّل والواقع، يساعدنا المتخيّل على رؤية الواقع بشكل أفضل، وعيشه بطريقة أحسن، والحصول على «إيضاحات» بشأن الكائن البشريّ ومنها حاجته إلى الاعتراف الّتي ذكرها الفيلسوف هيغل. إنّ كلّ شخص بحاجة إلى اعتراف الآخرين به، وهي حاجة أساسيّة تقوم الأعمال الفنّيّة بتوعيتنا بأهمّيتها. ففي سنّ معيّنة، وتحديدا في سنّ المراهقة، أي حتّى قبل أن يبدأ عقلك بالاهتمام بالفلسفة، تترك فيك بعض

الرّوايات أو بعض القصائد على غرار قصيدة «فصل في الجحيم» لرامبو، أو أشرطة سينمائيّة معيّنة، تأثيرا كبيرا لأنّها تكشف لك عن حقائق كانت ثاوية في أعماق أعماقك دون أن تكون واعيا بها. فعلى سبيل المثال، تُصوِّر ثلاثيّةُ «الأب الرّوحيّ»، مع مارلون براندو وآل باتشينو، أشخاصا مجرمين وهي لا تخفي عنّا شيئا من جرائمهم، ولكنّها في نفس الوقت تصوّرهم بوصفهم بشرا يشعرون بمشاعر الأبوّة والصّداقة والحبّ. إنّهم إذن بشر مركّبون. لقد قال الفيلسوف هيغل: «**إذا سمّيتُ شخصاً ارتكب جريمة واحدة في حياته مجرما فإنّني أكون بذلك قد محوت من حياته كلّ الجوانب الأخرى لأكتفي بالتّسليم بهذا الجانب الإجراميّ**». على الشّاشة الكبيرة كما هو الحال على ركح المسرح، ليس المجرم مجرما وحسب، وإنّما هو أيضا كائن بشريّ.

نجد في السّينما هذه الظّاهرة المتمثّلة في المشاركة، والّتي تجعلنا نشعر بشكل كبير بمشاعر التفهّم والصّداقة تجاه شخصيات نحتقرها في الحياة أو نتجاهلها، كالمتسوّل أو المتسكّع أو «الغجريّ»... إنّ هؤلاء هم كشّافون ومنبّهون، وهذا هو الأمر السّامي sublime تماما وفق تعريف كانط: «السّامي هو ما يكون كلّ ما عداه صغيرا مقارنة به». إنّ الأفكار تأتي من خلال الصّور والاستعارات، كما يقول **إيزنشتاين**، بعبارة أخرى، إنّنا نحمل الأفكار دون أن تعبّر عن نفسها بصفتها تلك، بل من خلال صور استعاريّة: في هذه اللّحظة، نندهش ونتأثّر تأثّرا كبيرا من هذا

الكشف عمّا كان في بواطننا مخفيّا أو عمّا كنّا نتوقّعه من أنفسنا.

إنّ هذه النّزعة الإنسانيّة الّتي نكتسبها من السّينما أو من روايات مثل روايتي «الإخوة كارامازوف» و«الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي، أو من مسرحيات شكسبير على المسرح، سرعان ما تختفي بكلّ أسف بمجرّد أن نغادر الكرسيّ الأحمر، بمجرّد أن نخرج من قاعة العرض، بمجرّد أن نغلق الكتاب، بمجرّد أن نعود إلى الحياة. ورغم ذلك، لقد كشف السّوريواليون عن السّمات الشّعريّة للحياة. فالشّعر لا يتوفّر في القصيدة فقط، بل هو مكوّن من مكوّنات حياتنا. والقصيدة هي طريقةٌ للتّعلّم وبلوغ السّمة الشّعريّة للحياة. يقول بيت لهولدرلين HÖldrelin: «بشعريّة، يستوطن الأرضَ الإنسان». يا لها من فكرة جميلة، ولكنّها أحاديّة الجانب لأنّ الكائن البشريّ الّذي يسكن الأرض نثريّا يجب أن يسكنها بشكل أكثر شاعريّة، وينبغي علينا أن نفهمَ أنّ التّمكّن من العيش بطريقة شعريّة هو أمر مهمّ. بوسعي أن أستشهد هنا بصديقي ستيفان هيسّيل Stéphane Hessel الّذي لم يكن قادرا على إنهاء طعامه دون أن يقرأ قصيدة لبودلير أو أبولينير. لم تكن المسألة عنده مجرّد إلقاء للشّعر، بل إنّه كان يعبّر بذلك عن جانب موجود في طبيعته ذاتها، لأنّه كان يعيش حياته بطريقة شاعريّة.

- **الكائن البشريّ واحد ومتعدّد**

ليس الإنسان صالحا فحسب أو طالحا فحسب، فكلّ

الممكنات كامنة فيه. كلٌّ واحد منّا يحمل فيه الأفضل والأسوأ اللّذيْن يمكن أن يعبّرا عن نفسيهما حسب الظّروف الّتي يجد نفسه فيها: فكم من أناس صاروا جلاّدين حيث كانت ممارسة التّعذيب والطّغيان شائعة، وربّما لو أنّهم وُجدوا في سياق مختلف لكانوا مواطنين مسالمين. وكم من أناس أصبحوا أبطالا وقدّيسين، وما كانوا ليكونوا كذلك أبدا لو أنّهم عاشوا في ظروف خَلَتْ من المشاكل والمآسي الاجتماعيّة. ماذا كان روبسبير وسان جوست وبونابارت يمكن أن يكونوا لولا اضطراباتُ الثّورة الفرنسيّة في نضالها ضدّ أعدائها؟ عندما نعترف بالتّعقيدِ البشريّ سندركُ أنّنا لا يمكن أن نستمرّ في ممارسة السّياسة بشكلها الحاليّ كما لو أنّنا مجرّد أغراض اقتصاديّة خالصة، تقاس بالنّاتج المحلّي الإجماليّ والنّموّ. ذلك أنّ معرفة الكائن البشريّ من خلال الحساب هي معرفة محدودة للغاية، فهي تتجاهل الأحاسيس والفرح والحبّ تماما. إنّه من غير الممكن احتساب الحبّ، وإنّه من غير الممكن قياس الحزن، لذلك فإنّ اكتسابنا لرؤية مركّبة يعني اكتسابنا بطريقة شاملة لرؤية أكثر إنسانيّة للبشر، ويعني أنّه ستتوفّر لنا إمكانيّة للفهم عادة ما نفتقر إليها لأنّنا ميّالون إلى تبرير الذّات وتحميل الآخرين أوزار الشّرّ وسوء التّصرّف والخطأ والرّذيلة. كما أنّ تبنّينا لرؤية أكثر إنسانيّة يعني أنّنا نمتلك رؤية مركّبة، نظرا إلى أنّ هذه الرّؤية تعلّمنا كيف نرى التّعدّديّة والتّنوّع داخل الوحدة الفرديّة، وألاّ نختزل نظرتنا للفرد في أسوأ ما فيه.

ما دمنا لا نعلّم البشرَ من هُمُ، ستظلّ معرفتنا بذواتنا تشكو من فجوة خطيرة إلى أبعد الحدود، ومن نقص شديد الضّرر، وإنّ هذا النّقص لمن أكبر مصادر الوقوع في الخطأ والأوهام عن أنفسنا وعن حيواتنا.

لقد تجاهلت قرونٌ من الهمجيّة، بما في ذلك تاريخُنا الحديث، إنسانيّةَ الآخرين، إنسانيّةَ مجموعةٍ عرقيّةٍ أخرى أو أصلٍ آخرَ أو ديانةٍ أخرى، وها أنّ هذه الهمجيّة تعود من جديد... لا شكّ في أنّ المعرفة الملمّة بالكائن البشريّ بكلّ ثرائه المركّب هي أمر ضروريّ ويمكن أن تساهم في تحسين العلاقات بين البشر، هذه العلاقات الّتي تعاني من الهمجيّة ليس فقط بين الشّعوب وبين الأديان، وإنّما أيضا وفي كثير من الأحيان بين النّاس حتّى في نفس المكتب وفي نفس الجامعة. تصبح العلاقاتُ همجيّةً عندما لا نفهم الآخرَ إلاّ من خلال الحكم عليه: «أوه، إنّه مجرّد أحمق! أوه، إنّه مجرّد وغد!»، أو عندما نحطّ من الآخر إلى مرتبة الكلب أو الخنزير أو الحشالة. فأعداء الفهم هم اللاّمبالاة والازدراء والكراهية، أمّا الفهم فيشتمل في الوقت نفسه على الاعتراف بالآخرين والشّعور بالإنسانيّة المشتركة معهم في كنفِ احترام اختلافهم.

لو نشرع في تحليل هذا الّذي يسمّيه الإنجليز بخداع النّفس self deception، أي الكذب على الذّات، فإنّنا سنخطو بالفعل الخطوة الأولى في الطّريق الصّحيح، ولو نفهم أنّ لنا بدورنا

مواطن ضعف وعيوبا وسلبيات ونقائص، فسوف نكون أكثر استعدادا لتقبّل فكرة أنّ الآخر يمكن أن تكون له أيضا عيوب وسلبيات ونقائص.

صحيح أنّ المعارف تُدرَّسُ، ولكنّ المعرفةَ بوصفها مصدرا دائما للأخطاء والأوهام الّتي نظلّ نعتقد لعدّة قرون أحيانا أنّها حقائق يقينيّة لا تدرَّس أبدا. لا بدّ إذن من إدراج تعليم اليقظة إزاء هذه الأخطاء والأوهام الّتي يعجّ بها التّاريخ البشريّ، بما في ذلك تاريخنا الحاليّ، حتّى لو أنّ هذه اليقظة لا يمكن أن تقضيَ على كلّ خطأ وكلّ وهم. يجب علينا تعليم الفهم البشريّ مع الحفاظ في الآن نفسه على رؤية الكائن البشريّ في أبعاده المختلفة، أي بأفضل وأسوء ما فيه.

إنّ التّربية هي تدريس كيفيّة مواجهة الحياة. فحصولُ المرءِ على وظيفة هو أمر مهمّ كي يعيش، فضلا عن تعلّم قواعد اللّسان، والكتابة، ومعلومات فيزيائيّة، وكيميائيّة. ولكن ما هو الشّيء الأكثر أهمّيّة في هاته المواجهة؟ إنّه طبعا القيام بأقلّ ما أمكن من الأخطاء، والانخداعُ أقلّ ما أمكن في حياتنا الخاصّة واختياراتنا الزّوجيّة، أو الوديّة، أو المهنيّة، أو السّياسيّة، أو غيرها. ولهذا، يجب أن نفهم الآخرين وأن يفهمنا الآخرون بدورهم، ويجب أن نقبل بتعقيد الكائن البشريّ ونضع كلّ شيء في سياقه دائما، وألاّ ننغلق في بوتقة الوثوقيات. فحتّى العلوم الأكثر تطوّرا اليوم، على غرار الفيزياء المجهريّة والفيزياء

الفضائيّة، تواجه الكثير من الشّكوك، بل إنّ حياتنا نفسها وكذلك حال مستقبل البشريّة ملتبسان، ولهذا السّبب لا بدّ من تدريس كيفيّة مواجهةِ هذه الشّكوك.

(3)

ظهور الكائن البشريّ

قبل حوالي أربعين عاما من الآن، صرّح فيلسوف مهمّ هو جان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard بما اعتبره «نهاية السّرديات الكبرى». كان يفكّر بشكل خاصّ في السّرديّة الماركسيّة الّتي هي سرديّة تاريخيّة كبرى عن الانتقال من المشاعيّة البدائيّة إلى العصر الإقطاعيّ، ومنه إلى الرّأسماليّة، ومن هذه أخيرا إلى الشّيوعيّة. وسرعان ما استقبلَ هذه الفكرةَ عن نهاية السّرديات الكبرى بحفاوة عددٌ كبيرٌ من المثّقفين الّذين راحوا يردّدون كالببغاوات: «إنّها نهاية السّرديات الكبرى، إنّها نهاية السّرديات الكبرى»، كما لو أنّ المسالة تتعلّق بمجرّد شذرات تاريخيّة مجزّأة لا علاقة لها ببعضها البعض. والمفارَقةُ هنا هي أنّه منذ عام 1960، ودون أن ينتبه ليوتار إلى ذلك، تشكّلت أعظمُ سرديّة من الممكن تصوّرُها؛ إنّها السّرديّة الّتي تنطلق من أصل الكون لتمرّ بظهور الحياة وصولا إلى تطوّر البشريةّ الرّائع منذ عصور ما قبل التّاريخ.

- مِن ذي الأربع إلى ذي القدمين

لقد تم وضع اللّبنات بين التّاريخ البشريّ والتّطوّر البيولوجيّ بعد أن كانت تفصل بينهما فجوة هائلة، ولهذا يمكن القول إنّ استمراريّةً قد نشأت من خلال انقطاعات أو قفزات. ويمكن أن يعود تاريخ أوّل عمليّة رأبٍ للصّدع بين التّطوّر البيولوجيّ والتّاريخ البشريّ إلى عام 1960 مع لويس Louis وماري ليكي Mary Leakey الجنوب إفريقيين، اللّذيْن اكتشفا في مستوطنة أولديفاي Olduvai بتنزانيا الحاليّة بشرا ذا قدمين ينتمي إلى فصيلة البشريات hominien، ويعود تاريخه إلى مليون وثمان مئة عام يسمّى القرد الأستراليّ australopithèque. ومنذ ذاك الوقت، تمّ اكتشاف ذوات قدمين بشريات bipèdes hominiens أكثر قِدما في التّاريخ، مثل لوسي وهابيل وتوماي...- وقد عثر ميشال بروني في عام 2001 على توماي هذا، الّذي كان يبلغ من العمر سبعة ملايين سنة، ممّا يدلّ على أنّ الفجوة بين عالم الرّئيسات primates وعالمنا ليست كبيرة كما كنّا نظنّ. وهكذا وضع هذا الاكتشافُ موضع الشّكّ الافتراضَ القائل بأنّ سيرورة المشي على قدمين bipédisation قد تكون نجمت عن تغيّر مناخيّ أدّى إلى تقلّص الغابة وانتشار السّافانا، ممّا جعل أسلافنا حينئذ يضطرّون إلى الجري بعد أن حُرموا من الشّعور بالأمن على الأشجار ومن طعامها الكثير، وهكذا تحوّلوا إلى صيّادين فارّين من الخطر، وأخذوا يقنصون الفرائس

ويصنعون الأدوات.

من هنا نشأت الفكرةُ القائلة بأنّ سيرورة المشي على القدمين (bipédisation) والتّأنسن (التّطوّر المرحليّ للإنسان) (hominisation) والاتّساع الجمجميّ (cérébralisation) قد تطوّرت في السّافانا. في الواقع، يمكننا الآن القول إنّ هذه الظّاهرة قد بدأت في الغابة مع بعض البشريات من خلال استخدامها لليدين بشكل أفضل، فأصبحت هكذا من ذوات القدمين ولم تعد من ذوات الأربع. إنّها سيرورة فيزيائيّة، سيرورة يدويّة ودماغيّة معا، طوّرت العلاقة بين اليد والدّماغ. وقد اكتشف لويس بولك Louis Bolk في العشرينات من القرن العشرين سيرورة أخرى على درجة كبيرة من الأهمّيّة، هي «استمرار السّمات الطّفوليّة juvénilisation»، فقد لاحظ أنّ الرّجلَ البالغَ يشبه صغيرَ الشّمبانزي الّذي لديه جبهة مستوية، ولم يتشكّل لديه ذقن بعدُ، وليس له شعر كثيف. ولاحظ أنّ للرّجل البالغ أيضا هذه الخاصّيّة الجنينيّة المتمثّلة في أنّ حَشفةَ عُضوه الذّكريّ تُغَلِّفُها قلفة، في حين أنّ حشفة عضو الشّمبانزي الذّكريّ غير مغلّفة بقلفة. ليس بإمكاني أن أزعم أنّ ممارسة الختان تُكمل بشكل مصطنع عملا لم تستكمله الطّبيعة، ولكنّها ممارسة تطرح مسألة مثيرة للاهتمام.

- من مجتمع قرديّ société primatique إلى مجتمع بشريّ:

تضاعفت في القرن الماضي الدّراسات المتعلّقة بعلم اجتماع الحيوان، وقد عرفنا من خلالها أنّ قردة البابوان والشّمبانزي والبونوبو تعيش في إطار اجتماعيّ. ويهمّنا هنا أن نشير أوّلا إلى أنّ الظّاهرة الاجتماعيّة ليست ظاهرة خاصّة بالكائن البشريّ؛ فمجتمع الذّئاب، على سبيل المثال، يتّحد عند محاولة اصطياد فريسة أو في مواجهة تهديد من الحيوانات المفترسة الأخرى، ومع ذلك فإنّنا نجد في صلب هذا المجتمع علاقات تآخ أو صداقة أو تنازع، على غرار ما يحدث أحيانا بيننا نحن البشر من نزاعات بين الذّكور من أجل حيازة الإناث جنسيّا وبلوغ وضعيّة الذّكر المهيمن.

قضّت جين غودال Jane Goodall سنوات عديدة في مراقبة مجتمع من الشّمبانزي، فاكتشفت أنّ العلاقات بين أفراده معقّدة للغاية، ولاحظت بالخصوص أنّها تخلو من سفاح القربى بين الابن البالغ وأمّه، وأنّ للأمّهات صديقاتٍ يعتنين بصغار الشّمبانزي من غير أبنائهنّ. وقد ظنّ البعض استنادا إلى عقدة أوديب أنّ حظر سفاح المحارم يهمّ السّفاح بين الأمّ وابنها: أي ذاك السّفاح الفظيع بين أوديب وأمّه. غير أنّ سفاح القربى هذا، الّذي يقارب الرّعب، هو نادر للغاية، وهو في واقع الأمر غير موجود بين الشّمبانزي وحتّى بين البالغين وأمّهاتهم. كما أنّ السّفاح بين الأب وابنته من ناحية أخرى، هو حالة تتعلّق في الواقع بحقيقة أنّ هذا الأب قد وفد حديثا على الأسرة الّتي كان

الخال يلعب فيها قبل قدومه دور الأب، فيبدو الأب هنا مثل غريب قد يغريه، وغالبا ما يحصل ذلك، التّزاوج مع بناته. إنّ حظر سفاح المحارم بين الأب وابنته، رغم أنّه مستمرّ بشكل غير ظاهر في أماكن كثيرة، هو الذي كان إذن وراء ظهور قواعد الزّواج المتمثّلة في البحث عن زوجة أو زوج من عشيرة أخرى. إنّها ممارسة راشدة للزّواج من خارج الأسرة ستصبح مع بعض القواعد الجديدة الأخرى، مثل تقاسم الغذاء عندما تكون الفريسة كبيرة، بمثابة التّنظيم الاجتماعيّ. لقد كان الاشتراك في النّساء وتقاسم الطّرائد أُسّين من أسس المجتمع البشريّ الأوّل.

على نحو متزايد، سمحت الملاحظة الميدانيّة بين البونوبو باكتشاف أنّ هؤلاء ينقلون من جيل لجيل ممارسات تشكّل ثقافة أوّليّة protoculture. كما اكتشف علماء سلوك يابانيون من ناحيتهم حدثا ثقافيّا في إحدى الجزر: فقد رأوا قرد ماكاك على حافة نهر وهو يمسك بيديه حبّة بطاطس، ثمّ سقطت منه لاإراديّا. عندما قام بالتقاطها، وجد طعمها المملّح لذيذا جدّا، فظلّ منذ تلك اللّحظة يذهب إلى النّهر لينقع حبّة البطاطس في مائه. بعد ذلك، قام أصدقاؤه الصّغار بتقليده، وحتّى بعد أن مات المسنّون ظلّ كلّ قردة الماكاك يذهبون إلى الماء لا فقط ليغمسوا فيه حبات البطاطس وإنّما أيضا ليكتشفوا أطعمة جديدة، كالقشريات الصّغيرة والأصداف والقريدسات وما إلى ذلك.

حتّى منتصف القرن العشرين، جرت محاولات لجعل

الشّمبانزي يتكلّم، ولكنّها باءت بالفشل كلّها. أمّا الزّوجان غاردنر Gardner، فقد استخدما لغة الإشارات الّتي استطاعا من خلالها أن يتواصلا مع أنثى شمبانزي شابّة سمّياها «فاشو»، ولقّناها ستّين كلمة من قاموس ابتدائيّ، وهكذا استطاعت هذه الشّمبانزي أن تجد استعارة بالاعتماد على الكلمة الانجليزيّة dirty بمعنى «قذر» الّتي كانت قد تعلّمتها منهما. ففي يوم من الأيّام، لم تكن فاشو سعيدة بوجود شخص ما فقالت له: «شخص قذر!». إذن، على مدى مسيرة ظهر خلالها الإنسانُ النّياندرتالي Néandertalien والإنسانُ العاقل homo sapiens، أصبحت المجتمعات البشريّة مترابطة بواسطة اللّغة والثّقافة والأسطورة.

لقد أصبح مجتمع قرديّ مجتمعا بشريّا من خلال تحوّلات جينيّة رافقها اتّساعُ حجم الدّماغ، وابتداعُ لغة مزدوجة التّمفصل à double articulation، وتطويرُ الأدوات، وترويض النّار، ومن خلال التّفكير والأسطورة أيضا.

ويعتقد بعض الباحثين أنّه في عصر البشريات l'époque hominienne كان المجتمع تحرّريّا وتشاركيّا في آن معا؛ فلم تكن الإكراهات الّتي تفاقمت في المجتمعات التّاريخيّة المبنيّة على الدّولة والعشائر والتّسلسل الهرميّ قد ظهرت بعدُ. كما أنّهم يعتقدون أنّه من المرجّح أنّنا قد حافظنا بداخلنا على حنين إلى هذا المجتمع التّحرّريّ والتّشاركيّ على حدّ سواء، وأنّ من هذا الحنين

قد وُلد الحلم في مجتمعاتنا التّاريخيّة بجنّة مفقودة أوّلا، ثمّ بجنّة مستعادة (هذا الحلمُ الّذي بلغ ذروته مع الشّيوعيّة).

إنّنا لا نعرف بالضّبط متى ظهرت لغتنا مزدوجةُ التّمفصل الّتي تستخدم فونيمات لا معنى لها، ولكن عند تجميعها تُشكّلُ وحداتٍ من المعنى. فهذه اللّغة هي جديدةٌ تماما، لأنّها تحلّ محلّ نظام من النّداءات والصّيحات الّتي تتشكّل كلّها من مقاطع صوتيّة واحدة، أو الّتي تكرّر نفس المقطع مثل ما-ما أو با-با، وهي بالتّأكيد بقايا طفوليّة من لغتنا الأوّليّة protolangage. ونتيجة لذلك، صارت لغتنا تتيح لنا إمكانية خلق مفردات لا نهاية لها تقريبا، بما يسمح لنا بإنتاج المعارف والأفكار والمشاعر ونقلها واكتسابها. لقد بتنا اليوم نعرف أنّ البشر العاقلين قد تمكّنوا في وقت مبكّر جدّا من الإبحار والوصول إلى أوقيانوسيا وأستراليا خاصّة. ولأنّ الإبحار، ولو إلى مكان مجهول، كان يستوجب التّخاطب وحسن التّواصل، فإنّه من الواضح أنّ لغتنا قد لعبت دورها بالفعل وبطريقة جدّ ناجعة.

وهكذا نرى أنّنا لسنا حيوانات ورئيسات وثدييات وفقاريات فقط، بل إنّ تاريخنا البشريّ أيضا سيظهر تدريجيّا عبر سيرورة من التّأنسن دامت بضعة ملايين من السّنين، ولا تزال غير معروفة كثيرا وتطرح العديد من القضايا وتحتفظ بالكثير من الأسرار.

إنّ هذه الاستمراريّة وعدم الاستمراريّة نفسَها قد نشأت بين

عالم الحياة وعالم المادّة الفيزيائيّة الكيميائيّة.

(4)

الإنسان في الكون

يقول **جاك مونو** في كتابه «**الصّدفة والضّرورة**»[2]: «نحن غَجرُ الكون». قد تكون الدّيناميكيّة الحراريّة لإيليا بريغوجين Ili Prigogine خفّفت قليلا من حدّة هذا الرّأي؛ إذ أظهر إيليا أنّ هناك لحظة من اللّحظات في ظروف عدم الاستقرار، عندما يتحوّل سائل ما إلى حالة من الغليان على سبيل المثال، تظهر فيها دوّامات تُسَمّى دوّامات بينار tourbillons de Bénard. فالعالم المادّيّ يخلق بطرق عدّة أشكالا دورانيّة منتظمة، كتلك الدّوّامات الّتي نراها في نهر وقد تشكّلت من صخرة تحت سطح الماء أو من قوس جسر وتظلّ في استقرار معيّن طالما ظلت تتغذّى باستمرار من تدفّق الماء. إنّ هذه الدّوّامات هي بُنى منتظمة من تدفّق جزيئات الماء، تماما مثلما أنّ الحياة هي تدفّقٌ لجزيئات وخلايا متعاقبة في جسمنا. يولد هذا التّنظيم في ظلّ ظروف ما يسمّى بـ "اللاّتوازن الفيزيائيّ". نحن لا نعرف إذا كانت هناك حياة أم لا في الكواكب الخارجيّة الّتي نكتشفها ولم نجد فيها شيئا حتّى الآن،

(2) .Le Hasard et la Nécessité, Essai sur la philosophie naturelle de la biologie moderne, Seuil, 1970.

ولكنّ الحياة على أيّ حال هي ظاهرةٌ نادرة بالفعل على الأرض، لأنّها ليست سوى جزء صغير من المادّة الفيزيائيّة الكيميائيّة الموجودة على قيد الحياة والنّادرةِ جدّا في الكون بلا شكّ. إنّنا بصدد ظهور شيء جديد، بصدد بروز تنظيم أكثر تعقيدا وسيزداد تعقيدا لأنّ بعض أحاديات الخليّة سوف تنضمّ إلى بعضها البعض لتشكّل كائنات متعدّدة الخلايا. والحدث الهامّ هو أنّ هناك سرديّة عن التّطوّر البيولوجيّ ما تزال مستمرّة داخل سرديّة التّطوّر البشريّ، وأنّ هناك سرديّة حقيقيّة وحديثةً تماما حول التّطوّر الفيزيائيّ والكيميائيّ. فقد تمكنّ هابل Hubble في عام 1924، انطلاقا من أعماله على الضّوء المنبعث من النّجوم البعيدة، من تحديد المسافة المتدرّجة الّتي تفصل هذه النّجوم عن بعضها البعض، وهو ما جسّد فكرة الكون النّاجم عن ولادة، والآخذ في التّمدّد. وقد أكّد هذه الفكرةَ اكتشافُ الإشعاع الأحفوريّ المتماثل rayonnement fossile isotrope الّذي يحيط بكوكبنا، والّذي يمكن تفسيره بأنّه من بقايا تفجّر أوّليّ وقع منذ ثلاثة عشر مليار سنة، ويسمّى مجازا «الانفجار الكبير»Big-Bang.

بعبارة أخرى، إنّ كوننا وليد، ونحن لا نعرف ماذا كان هناك قبل ولادته: هل كان هناك فراغ أم كانت هناك طاقة أم ماذا؟ الأمر المهمّ هو أنّ كوننا له ولادة وله تاريخ؛ فبعدَ مرحلةٍ حراريّةٍ مكثّفةٍ، تكوّنت الجسيمات ثمّ انضمّت إلى بعضها البعض أو دَمّرت بعضها البعض، والفرضيّةُ السّائدةُ هي أنّ المادّة قد دمّرت

المادّة المضادّة منذ ولادة الكون تقريبا، وتشكّلت ذرّات من الجسيمات الّتي اتّحدت، أولاها ذرّة الهيدروجين وهي أبسطها، ثمّ ذرّات مركّبة، وتشكّلت ذرّة الكربون الضّروريّة للحياة في مسبك شمس كان وجودها سابقا على وجود شمسنا. وعند انفجار هذه الشّمس، تفرّق الكربون وتشكّل من جديد في كواكب أخرى بما فيها كوكبنا، وهذا ما جعل الحياة تصبح ممكنة. وهكذا نتبيّن هاته الرّوابط المتعدّدة الّتي توحّد تاريخ الكون بتاريخ حياتنا وبولادتنا نحن.

يُعتبر تشكّلُ النّجومِ حدثا استثنائيّا بأتم معنى الكلمة، فقد تشكّلت مليارات النّجوم وما تزال نجوم جديدة تتشكّل. وهي تنشأُ من عمليّة مدهشة تتمثّل في أنّ الجاذبيّة تقوم بتركيز غبار من الجسيمات بطريقة تجعلها تنتج حرارة متصاعدة ممّا يؤدّي إلى تفجّر النّار. فالنّجم إذن هو نار، ولكنّ هذه النّار ذات زخمٌ تفجيريّ tendance explosive، في حين أنّ الجاذبيّة ذات زخم انفجاريّ tendance implosive، ومن هنا تولد مليارات من هذه النّجوم الّتي يمتدّ عمرها على مليارات من السّنين أيضا، ترافقها أثناء ذلك حوادثُ وصداماتٌ فيما بينها، وهلمّ جرّا.

في كون يفتقر إلى مركز، هناك مجرّة تسمّى «درب التّبّانة»، وفي هذه المجرّة هناك شمسُ ضواحٍ صغيرة هي شمسُنا، أمّا القمرُ الاصطناعيّ لهذه الشّمس فهو كوكبنا الّذي نشأت فيه الحياة. هذا هو وضعنا في الكون.

- نشأةُ البشريّة

هل كانت نشأة البشريّة أمرا محتوما؟ يؤمن بعض علماء الفيزياء الفلكيّة بذلك بحكم المبدأ البشريّ الّذي يشتمل على شكلين: أحدهما ضعيف والآخر قويّ. يقول المبدأ البشريّ الضّعيف، حسب براندون كارتر Brandon Carter: «بما أنّ الكائن البشريّ قد ظهر للوجود، فهذا يعني أنّ احتمال ظهوره كان موجودا منذ البداية». وهذا من تحصيل حاصل. أمّا الشّكل القويّ لهذا المبدأ، فيُظهر أنّ البشريّة كانت قادرة على التّطوّر بالتّزامن مع لحظة معيّنة توقّف فيها كوكب الأرض عن الاضطرابات المنجرّة عن الانفجارات البركانيّة والظّواهر الزّلزاليّة وغيرها. هذا يعني أنّ البشريّة بدأت تتطوّر في اللّحظة الّتي اكتمل فيها نموّ الشّمس منذ ملياري سنة، ومن المحتمل إذن أن تستمرّ لملياري سنة أخرى. لم تنشأ البشرية إذن لا قبل الأوان ولا بعده. ويلاحظ أنصار المبدأ البشريّ أيضا أنّ القوانين الّتي تحكم الكون الفيزيائيّ، أي التّفاعلات القوّية والضّعيفة الّتي تربط بين الذّرّات والجاذبيّة والكهرومغناطيسيّة، هي قوانين منظّمةٌ بطريقة دقيقة للغاية بما يجعل هذا الكونَ مدفوعا إلى تنظيم نفسه وغيرَ محكوم عليه بالإجهاض منذ ولادته تقريبا. وهنا ينبري بعض الغائيين les finalistes الّذين يعتقدون أنّ الكون يسير نحو التّعقيد فيقولون: «لقد حدث هذا على وجه التّحديد لأنّ الخالق أراد للإنسان أن يظهر». قدْ يتساءلُ المرء حينئذ: لماذا

إذن ما يزال التّعقيد غير مؤكّد إلى هذا الحدّ في كوننا الّذي يسير بدوره نحو التّبدّد والفناء؟ ولماذا لا يوجد في الكون سوى 4٪ فقط من المادّة المنظّمة؟ ولماذا هذا العددُ الكبير من الكوارث والإخفاقات وحالاتِ الإجهاض في مسار التّطوّر البيولوجيّ كما في مسار التّطوّر البشريّ؟

- **ثلاثيّةُ النّظام/ الاختلال/ التّنظيم**

ما يثير الاهتمام في وجودِ كوننا واستمراره وتطوّرِه هو أنّ هناك ثلاثيّةً تحكمه، ثلاثيّة أسمّيها: النّظام والاختلال والتّنظيم.

- **النّظام**

للنّظام أسس تسمح على وجه التّحديد بتنظيم الذّرّات والجزيئات والنّجوم والكائنات الحيّة، وهي أسسُ الجاذبيّة والكهرومغناطيسيّة والتّفاعلات الضّعيفة والقويّة للذّرّة.

- **الاختلال**

يقع مبدأ الاختلال في صميم المبدأ الثّاني للكهرومغناطيّسيّة، وهو مبدأ التّفكّك أو الاضطراب في أيّ منظومة، والّذي من شأنه أن يفضي في نهاية المطاف إلى فناء الكون من خلال التّذرية واسعة النّطاق.

لقد ابتكر الشّاعر إيليوت صياغة جميلة جدّا للحديث عن فناء الكون حين قال: «سينتهي الكون في همسة»، a whisper بالإنجليزية.

- التّنظيم

ينشأ التّنظيم بالتّحديد من الاجتماع، النّاجم عن الاختلال، بين جسيمات وذرّات تنظّم نفسها بنفسها وفقا لمبادئ النّظام. ويمكننا القول إنّ نشأة الحياة بالذّات هي شيء قد حدث انطلاقا من مبادئ النّظام، في وضعيّة اختلال، من التقاء جزيئات خلَقت زوبعة صاخبة دخلت هي نفسها في نظام انطلاقا من دورة الحمض النّوويّ-البروتين. ويرى علماء الفيزياءِ الفلكيّة من أنصار نظريّة الأوتار théorie des cordes أنّ وجود تعدّديّة كونيّة هو احتمال قائم. ومع ذلك، مازال هناك سرّ يتمثّل في هذه الميكروفيزيائيّة الخاضعة لقواعد تتحدّى منطقَنا بشكل مطلق، ذلك أن جُسَيْما ما بإمكانه أن يكون موجةً وجسيمةً في آن واحد، أي وحدتين متناقضتين. وهي ميكروفيزيائيّة موجودة في كلّ مكان لأنّها تشكّل أقبية كوننا وكينوناتنا.

ما يجب علينا أن ندركه هو أنّ المادّة المنظّمة، أي مادّتنا، ضئيلة للغاية لأنّها لا تمثّل سوى 4٪ من الكون بأكمله، أمّا الباقي فهو طاقة سوداء وما يسمّى بالمادّة السّوداء، وهما شيئان مجهولان حتى

الآن. إنّه كون يزداد غموضا إذن، وكلّما زادت معرفتنا به كشفت لنا عن مزيد من المجهول. وعلى أيّة حال، إنّ المادّة الموجودة في النّجوم وفي كوكبنا هي نادرة في الكون، مثلما أنّ الحياة نادرة في العالم المادّيّ لكوكبنا وللكون كلّه بلا شكّ. إنّ الحياة ثورةٌ في سيرورة التّطوّر الفيزيائيّ، مثلما أنّ التّاريخ البشريّ ثورةٌ في سيرورة التّطوّر البيولوجيّ.

لقد كانت هنالك لحظة ظهرت فيها ذوات الخلايا المتعدّدة، النّباتيّةُ منها والحيوانيّة، ويُعتبَر التّطوّر النّباتيّ في حدّ ذاته تطوّرا يتميّز بتنوّع مدهش مع أشجار السيكويا المعمّرة، والأعشاب والطّحالب الصّغيرة، ومع مراحل مذهلة تماما، مثل ظهور الأزهار، ومع أحداث عجيبة أيضا مثل حقيقة أنّ الأزهار ترحّب بالحشرات الملقّحة كي تنثر عليها هذه الأخيرة غبار اللّقاح. وكانت هنالك لحظةُ تطوّر حيوانيّ لا يمثّل فيه عالم الفقاريات إلاّ جزءا صغيرا فضلا عن اللاّفقاريات الّتي منها الحشرات. ويعتبَر تطوّر الثّدييات بين الفقاريات هامشيّا إلى حدّ بعيد، ويبدو أنّ الحيوانات النّباتيّة الضّخمة، ونعني بها الدّينصورات، قد انقرضت خلال حدوث كارثة بيئيّة كبرى، قد تكون بركانا أو من جرّاء سقوط نيزك على الأرض أدّى إلى حجب الغلاف الجوّيّ لفترة طويلة وتسبّب في تقلّص الغطاء النّباتيّ. وقد استفادت من ذلك قوارضُ وثدييات صغيرة، هي أسلافنا، أوّلا لأنّها أكلت الدّيناصورات الميّتة الّتي كانت في ذلك الحين طعاما وفيرا للغاية،

وثانيا لأنّها بذلك تمكّنت هي نفسها من التّطوّر. قد يكون تطوّرُ سلالتِنا الثّديية ناجما عن هذا الحادث.

مسألة الحادث موجودة أيضا في التّطوّر الفيزيائيّ في شكل اصطدام بين النّجوم وثقوب سوداء؛ فنحن نعلم أنّ هناك حادثين رئيسيين على الأقلّ قد تخلّلا تاريخ البشريّة. فبالإضافة إلى حادث انقراض الدّيناصورات في الحقبة الوسطى، جدّ في الحقبة الأوّليّة حادث لا يقلّ أهمّيّة عنه، ألا وهو انقراض 80٪ من الأنواع الحيّة خلال تلك الحقبة، ثمّ أعادت الحياةُ بعد ذلك بناء نفسها على أسس جديدة. وليس التّاريخ البشريّ هو وحده الّذي تخلّلته حوادث وكوارث، ذلك أنّ كوكبنا قد اصطدم وسوف يصطدم بكويكبات ونيازكَ تتسبّب في اضطرابه. هذا يعني أنّنا نعيش في عالم معرّض للحوادث والتّقلّبات، وهو القاسم المشترك بين التّاريخ الفيزيائيّ والتّاريخ البيولوجيّ والتّاريخ البشريّ.

- **الحياة ظاهرة خلاّقة**

تُعتبر نشأة الجهاز العصبيّ والدّماغ والكبد والطّحال والأجنحة والزّعانف وتطوّرها كلّها، أفعالا خلاّقة في مسار التّطوّر البيولوجي؛ فلوقت طويلٍ ظلّ علماء الحياة يكرهون بشدّة نظريّة الخلق، وهم محقّون في ذلك، إلى درجة أنّهم كرهوا معها كلمة خلْق. ولكن هناك ظواهر خلاّقة قد حدثت بالفعل وكانت

حاسمة في تاريخ الحياة وفي تاريخ البشريّة على حدّا سواء. إنّها طفرات يمكن أن تلعب الصّدفةُ دورا فيها، ولكنّها قد تكون في الوقت نفسه ردودا خلاّقة على تحدّ مّا.

لقد ابتدعت النّباتات عمليّة ترويض الطّاقة الشّمسيّة بواسطة الاستيعاب الكلوريفيلي وتوليد الأكسيجين، ولكنّ هذا الأكسيجين بالذّات يُعتبر سمّا بالنّسبة إلى الكائنات الحيّة الأولى، كالكائنات اللاّهوائيّة، إذ يتسبّب في تعفّنها وتلوّثها وتدهورها. أمّا بالنّسبة إلى الحياة الحيوانيّة، فقد تمثّل اختراعُها الرّئيسيُّ في تحويل هذا السّمّ إلى مخلّص من السّموم؛ فعن طريق الجهاز التّنفّسيّ يمرّ الأكسيجين المتسرّب إلى الرّئتين في الدّم، ومن ثمّ يقوم بتطهير الخلايا والدّم نفسه من السّموم ويصبح ضروريّا للحياة. كان أسلافُنا الثّدييات كائناتٍ مائيّة اضطّرتها المياه الّتي اختفت أو تراجعت بلا شكّ إلى الخروج من الماء، فكان لا بدّ لها من أن تتحوّل إلى كائنات برمائيّة. وهنا أيضا تمكّنت من التّكيّف مع اليابسة، وكان لا بدّ من أن تتحوّل خياشيمها إلى رئتين. كما لا يجب أن ننسى ظاهرةَ العالم الطّائر، أيَ عالَمَ الحشراتِ والطّيور، وعالمنا نحن البشر أيضا الّذين انتهى بنا المطاف إلى الطّيران بواسطة الآلات الّتي كان يتعيّن علينا اختراعها من أجل ذلك. هذه هي الحياةُ إذن، ظاهرةٌ خلاّقةٌ تنطوي على كوارث كما تنطوي أيضا على ما تمّ نسيانُه لفترة طويلة؛ وأعني به التّطوّر المشترك coévolution.

إنّ التّعايش بين مجموعة متنوّعة من الكائنات الحيّة يخلق منظومة بيئيّة، بمعنى منظومة تلقائيّة تقوم بتعديل نفسها بنفسها داخل العلاقات بين الكائنات الحيّة، في إطار علاقة يمكن أن نسمّيها علاقة تغذويّة trophique؛ فالحيوانات العاشبة تقتات من الأعشاب، واللّواحم الصّغيرة تأكل حيوانات عاشبة صغيرة، واللّواحم الكبرى تأكل اللّواحم الصّغيرة، وهذه الأخيرة تتحلّل لتصبح غذاء للحشرات آكلة الجيفة بينما تغذّي أملاحُها المعدنيّةُ جذورَ النّباتات. إنّ دورةَ الحياة هي دورةُ الموت الّتي تغذّي المنظوماتِ البيئيّة، إذ يندمج كائنٌ حيٌّ في منظومة بيئيّة ما فيحوّلها وتحوّله.

- **البشريّة ثورة في سيرورة التّطوّر**

لقد كانت الحياة ثورة في التّاريخ الفيزيائيّ، وكان الكائن البشريّ ثورة في التّاريخ البيولوجيّ. فمنذ ظهور الإنسان العاقل، توقّفنا عن التّطوّر فيزيائيّا: فلئن تقلّصت أسنان العقل أو اضمحلّت، وربّما تقلّص أيضا جهازُنا اللّحافيُّ شيئا ما، إلاّ أنّ الإنسان العاقل ظلّ تقريبا على حاله منذ خمسين ألف سنة. لقد غدا التّطوّرُ ثقافيّا واجتماعيّا وفكريّا، وما إلى ذلك، وهذا هو الجانب الجديد في البشريّة، وظهرت المجتمعاتُ البشريّةُ الأولى، ونعني بها مجتمعات الصّيّادين-القاطفين الّتي كانت مجتمعات صغيرة يمارس فيها الرّجالُ الصيد بينما تكرّس النّساءُ وقتهنّ

للالتقاط والقطاف وتنشئة الأبناء.

أظهرت دراسة قام بها مارشال سالينز Marshall Sahlins عن بوشيمان صحراء كالاهاري أنّ هؤلاء كانوا يقضّون وقتا قليلا جدّا في الصّيد؛ فعندما كانوا يقتلون زرافة، كان لحمها يكفيهم مؤونة لأيّام عديدة، ولهذا كانوا يقضّون بقيّة الوقت في الحوار وصناعة لُعَب لأبنائهم وترتيب بيوتهم. ومن المفارقات أنّ مارشال سالينز قد أطلق على هذا المجتمع اسم " مجتمع الوفرة الأوّل"، إذ كانت هذه المجتمعات تتميّز بقابليّتها الشّديدة للبقاء والتّكيّف، وقادرة على التّأقلم مع أقسى حالات الطّقس برودة على غرار شَعْب الإنويت les Inuits، ومع أكثر درجات الحرارة الاستوائيّة سخونة كما هو الحال في إفريقيا أو في أمريكا الجنوبيّة، ومع تعاقب الفصول في المناخات المعتدلة. إنّها إذن مجتمعاتٌ شديدةُ التّكيّفِ وقادرةٌ على التّنقّل من مكان لآخر حين يزداد الطّعام ندرة، ومِنَ المرجّحِ أنّ الفلاحة قد ظهرت في بعض المجتمعات، وأنّ صيّادينَ رُحّلا قد صاروا يُغيرون على تلك المجتمعات. ويرى فرانز أوبنهايمر Franz Oppenheimer أنّ الإتاوة الّتي كان المغيرون يفرضونها قد تكون هي الّتي أدّت إلى نشأة الدّولة.[3]

على أيّة حال، لقد نشأت مجتمعاتٌ في ظروف لا تزال غامضة

(3) .L'Etat, ses origines, son évolution et son avenir, traduit de l'allemand par M.W.Horn, Paris, M.Giard et E.Brière, 1913 .

جدّا وظهرت معها القرية والاستقرار الحضريّ والمدينة والطّبقات الاجتماعيّة والدّيانات الكبرى والمباني العظيمة والحروب، وكانت تقوم بين مجتمعات الصّيّادين-القاطفين حروبٌ صغيرةٌ طُقوسيّةٌ جدّا بطبيعة الحال، بيد أنّ حروب المجتمعات التّاريخيّة كانت تسفر عن غنائم وتُنتج العبوديّة على وجه الخصوص. وقد ظهرت هذه المجتمعات في البداية في شكل دول- مدن، ثمّ بعد ذلك في شكل امبراطوريات في الشّرق الأوسط وحوض الإندوس والصّين وأمريكا والمكسيك حاليّا وجبال الأنديز. الشّيء المذهل في سكّان مجتمعات جبال الأنديز هو أنّهم لم يعرفوا الحصان ولا العجلة، ولكن مع ذلك كانت لهم امبراطوريّة تمتدّ من الإكوادور إلى شعب المابوتشي في الشيلي الحاليّ الّذي لم يخضع لسيطرة أيّ جهة أخرى. وكان لهذه الإمبراطوريّة نواميسها وطريقة عمل خاصّة بها، فقد كانت كلّ قرية تحتفظ لنفسها بثلث المحصول بينما تعطي ثلثه للإنكا... بطبيعة الحال، أدّت المجتمعاتُ التّاريخيّةُ تدريجيّا إلى التّقليص من مجال مجتمعات الصّيّادين-القاطفين حتّى أنّه لم يعد لهذه الأخيرة وجود اليوم إلاّ بوصفها بقايا في أمريكا الجنوبيّة وآسيا وإفريقيا، ولم يعد من مصير ينتظرها إلاّ الموت أو التّحوّل بشكل فظيع، وإنّ هذا لأمرٌ مؤسفٌ للغاية لأنّ هذه المجتمعات بأسلوب حياتها كان من الممكن أن تقدّم لنا دروسا في التّضامن.

كم هي مدهِشةٌ هذه القدرةُ الّتي اكتسبها الكائنُ البشريّ أثناء

صيرورته لتحقيق هذا التّحوّل! فلو أنّ مجتمعا تاريخيّا قد نشأ مرّة واحدة، في بلاد ما بين النّهرين على سبيل المثال، لأمكن لنا القول إنّه حدث فريد من نوعه. ولكنّه حدَثَ خمس مرّات، وهذا يعني أنّ هناك اقتدارا أنتروبولوجيّا قد توفّر ليجعل من نشأة مجتمعات معيّنة في ظروف بيئيّة وديمغرافيّة وتقنيّة معيّنة أمرا ممكنا. إن تاريخ مجتمعات العالم القديم تلك، في آسيا والهند والصّين، هو تاريخ خلاّق ومدمّر في نفس الوقت؛ فقد اندثرت امبراطوريات العالم القديم وحضاراته كلّها. هناك إذن هذه السّمة المدهشة تماما لمجتمع ليس قادرا على التّطوّر فقط، ولكن أيضا على التّغيّر والتّحوّل داخل هذا التّطوّر، غير الخطّيّ بالطّبع، والّذي ينطوي على اضطرابات وانقطاعات. لقد نشأت تلك المجتمعات لأنّ المجتمعات الأثريّة les sociétés archaïques توحّدت واندمجت في بعضها البعض، ربّما بفعل شخصيّة مهيمنة قامت بإلغاء الإتاوةَ ومن ثمّ اخترعت الدّولةَ. وعلى أيّة حال، إنّ هذه المجتمعات التّاريخيّة، بقراها وفلاحتها ودولتها ودياناتها وطبقاتها الاجتماعيّة وعبوديّتها، سوف تهيمن على أسلافنا الأثريين وتقضي عليهم.

الظّاهرة الأبرز في العصور الحديثة هي بروز الدّولة-الأمّة في جزء صغير من أوروبّا الغربيّة، وتحديدا في كلّ من إسبانيا، والبرتغال، وفرنسا، وإنجلترا. الأمّةُ بطبيعة الحال هي أكبرُ من المدينة وأصغر من الإمبراطوريّة، ولكنّها أكثر استقرارا من

امبراطوريّة تهيمن على شعوب مختلفة للغاية دون أن تدمجها كلّيًا في هويّة مشتركة. فالأمّة في إسبانيا وإنجلترا وفرنسا تجمع بين سكّان ذوي أصول متنوّعة، على غرار الألزاسيين والفلامند والباسك وغيرهم في فرنسا، ثمّ تنجح مع مرور الوقت في توحيد مختلف مكوّناتها الّتي تظلّ مع ذلك محافظة على أصالتها. ورغم أنّ هذه المكوّنات قد فقدت استقلالها الذّاتيّ، إلاّ أنّها ظلّت تحافظ على ثقافاتها. إنّ الأمم القديمة نفسها ليست مندمجة تماما؛ فكتالونيا وإقليم الباسك في إسبانيا، واسكتلندا في إنجلترا، وكورسيكا في فرنسا، تعبّر عن نزعاتها إلى الحكم الذاتيّ وتشهد حركات مؤيّدة للاستقلال. ومع هذا، كانت الأمّة أكثر قابليّة للاستمرار من الإمبراطوريّة، فجميع الامبراطوريات بما فيها الحديثة قد تفكّكت، كالإمبراطوريّة العثمانيّة والإمبراطوريّة النّمساويّة-المجريّة والإمبراطوريّة القيصريّة ثمّ الإمبراطوريّة السوّفييتيّة.

ظلّت الأممُ العظمى الأولى محافظة على استقرارها لأنّها خلقت ثقافة مشتركة ليس فقط من خلال لسان رئيسيّ تطوّر مع الزّمن، أو من خلال ثقافة مدرسيّة، وإنّما أيضا من خلال فكرة الوطن. ولئن كانت فكرة الوطن في بدايتها كلمة تدلّ فقط على الوطن الصّغير أي القرية، إلاّ أنّها توسّعت فيما بعد لتعبّر عن الأمّة وذلك بفضل الثّورة الفرنسيّة على وجه الخصوص. إنّ كلمة «وطن» تحمل دلالة مزدوجة، أبويّة وأموميّة في نفس الوقت؛ فهي

أموميّة في الوطن الأمّ، وأبويّة في السّلطة الشّرعيّة. فالوطن إذن هو المحبّة الّتي ندين بها لأمّنا الوطن، وهو الطّاعة الّتي ندين بها لسلطة الدّولة. والأمّةُ هي مجتمعٌ يشعر فيه أعضاؤه بأنّهم مترابطون نفسيًا، ولكنّهم يشكّلون كذلك مجتمعا يمكن أن توجد فيه علاقات تقوم على التّنافس والصّراع والتّقاتل وحتّى على الحرب الأهليّة أحيانا. من البديهيِّ أنّ الشّعور بالانتماء إلى المجموعة يكون أقوى في زمن الحروب وعند الشعور بالخطر، وهذا ما يفسّر التّآزر في مواجهة العدوّ كما يفسّر هذه الأخوّة الّتي يشعر بها فرنسيان عندما يلتقيان وهما يقودان سيّارتيهما في آسيا على سبيل المثال. ويمكن التّحقّق من الطّاقة «الوطنيّة» للرّوح الاجتماعيّة أثناء مقابلات كرة القدم على وجه الخصوص، وقد عبّرت عن نفسها عندنا بصورة خاصّة عندما حقّق الفريق الفرنسيّ لكرة القدم الانتصار العظيم في عام 1998.

سيصبح تاريخ الأمم في تطوّر مستمرّ وفي أزمة دائمة بسبب تأثيرات السّيرورات الاقتصاديّة والتّقنيّة والعلميّة وتأثيرات نموّ الرّأسماليّة والعولمة. فالأمّةُ، الّتي كانت ظاهرة محدودة جدّا ومحصورة في بعض بلدان أوروبّا في القرن السّادس عشر، سوف تنتشر في جميع أنحاء العالم، خصوصا في القرن العشرين حيث ظهرت للوجود أمم لا تشبه النّموذج الأوّل، بل تريد أن تكون أحاديّة العرق والدّيانة. ومن هنا بدأت المآسي، كما حصل على سبيل المثال بعد انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة الّتي كانت تعيش

فيها شعوب ذات أصول وديانات مختلفة للغاية: فانهارت كياناتُ أمم مثل يوغسلافيا قبل حتّى أن تتشكّل في أمم مكتملة، وظهرت في كلّ مكان مشاكل الأقلّيات والتّطهير الدّينيّ والعرقيّ كما حدث في إسبانيا في القرن السّادس عشر. وانطلاقا من هذا القرن، ومع غزو الأمريكتين والملاحة حول العالم، صار التّاريخ عالميّا. إنّ الأزمنة الحديثة، حسب رأيي، لم تبدأ كما هو شائع لدى الكثيرين مع سقوط القسطنطينيّة في عام 1453، بل بدأت في عام 1492 مع اكتشاف أمريكا والملاحة حول العالم، ثمّ بعد أربعين سنة من ذلك مع اكتشاف كوبرنيكوس واكتشاف أنّ الأرض كوكب من بين كواكب أخرى ومن ثمّ لم تعد هي مركز العالم. لقد دخلنا حينئذ في الحقبة العالميّة، ومنذ ذلك الوقت كان هناك تطوّر مستمرّ وأزمات مستمرّة - باعتبار أنّ التّطوّر هو دائما تدميرٌ لشيء ما وخلقٌ لشيء آخر. يمضي التّاريخ البشريّ في سيرورة مماثلة تقريبا لسيرورة التّاريخ البيولوجيّ، إذ يَظهر انحراف ما، ثمّ يصبح هذا الانحراف اتجاها حين يترسّخ وينمو، ثمّ يصبح هذا الاتّجاه قوّة تاريخيّة خلاّقة وحاسمة في سيرورة التّطوّر.

- **مكانة الانحرافات في تاريخ الدّيانات**

دعونا الآن نلق نظرة إلى تاريخ الدّيانات في مسار التّاريخ البشريّ. لقد كان بوذا، أميرُ سيدهارثا، زاهدا متأمّلا في المعاناة والحياة، ومن تأمّلاته تلك نشأت فلسفته. وقد اجتمع من حول

هذا النّاسك بعض الأتباع الّذين تأثّروا به، ثمّ ظهرت على أيدي هؤلاء ديانة أشعّت على آسيا، وخصوصا على الصّين واليابان وكوريا وغيرها، هي الدّيانة البوذيّة.

كان يسوع منحرفا يمثّل أقلّيّة في صلب العالم العبريّ زمنَ الهيمنة الرّومانيّة، وكانت هناك نزعات جديدة قويّة مثل الفرّيسيين والصّدّوقيين والأسّينيين. يسوع كان شامانا انتهت حياته نهاية مأساويّة، بيد أنّ واحدا ممّن قاموا بتعذيب أنصار المسيح الأوّلين، ونعني به شوال الطّرطوسيّ الّذي سيسمّي نفسه فيما بعد باسم بول، قد بدّل ديانته، وانطلاقا من رسالته هو سوف تظهر المسيحيّةَ باعتبارها ديانة غير مقتصرة على الشّعب المختار، بل مفتوحة أمام الجميع. ستلغي هذه الدّيانةُ الطّقوسَ الهامّة والمحرّمات الرّئيسيّة الواردة في الكتاب المقدّس بالاعتماد على الفكرة القائلة بأنّ المرءَ يكفيه أن يعتنق المسيحيّة وأن يتمّ تعميده وألاّ يرتكب الخطيئة كي يصير جديرا بالفردوس، أي بالقيامة: ذلك أنّ أجساد البشر فقط هي الّتي يتمّ بعثها. لقد انتشرت المسيحيّة، بل لقد أحدثت انحرافاتها الخاصّة بها – بعضُها قد قُضي عليه كالألبيجيين، وبعضها الآخر تمكّن من الانتشار كالبروتستانت. الرّسول محمّد هو أيضا منحرف؛ فقد أُطرِدَ من مكّة واضطرّ إلى الهجرة إلى المدينة، ولكنّ رسالته رغم ذلك، ستنتشر في وقت وجيز، وسوف تصبح قوّة تاريخيّة هائلة تمتدّ حتّى آسيا وإفريقيا وأوروبّا.

- مكانة الانحرافات في تاريخ الاقتصاد والسّياسة والاقتصاد والفنون

لو نظرنا إلى بدايات الرّأسماليّة فإنّه بإمكاننا أن نلاحظَ أنّها تطوّرت وقد كانت عالةً على المجتمع الإقطاعيّ، وأنّ ظهور المَلَكيات سيساعدها في ذلك. ولكن ليس هذا كلّ شيء، فالبندقيّة وميلانو كانتا دولتين-مدينتين ازدهرت فيهما الرّأسماليّة إلى جانب التّجارة الّتي لم تعد مقتصرة على البحر الأبيض المتوسّط، بل أصبحت أطلسيّة، وسوف تصبح الرّأسماليّة قوّة اقتصاديّة مهيمنة في قادم القرون. أمّا الاشتراكيّة فقد ظهرت في القرن التّاسع عشر على أيدي بعض المفكّرين المعزولين الّذين أُطلِق عليهم اسم الاشتراكيين الطّوباويين، ومنهم فورييه وبرودون وكارل ماركس، الّذين لم يعترف الوسط الفكريّ والوسط الأكاديميّ في ذلك الوقت بأيٍّ واحد منهم، وخصوصا منهم ماركس. وعلى الرّغم من أنّ هذا الأخير قال في «بيان الحزب الشّيوعيّ»: «ليس للشّيوعيين أيّ حزب، لأنّهم يعملون من أجل المصلحة العامّة»، إلاّ أنّ حزبا من نوع جديد سيرى النّور بعد سنوات قليلة، هو الحزب الاجتماعيّ الدّيمقراطيّ الألمانيّ. ثمّ سوف يتتالى بعد ذلك ظهور الأحزاب الاجتماعيّة الدّيمقراطيّة الّتي كانت تتمتّع بقوّة كبيرة، وصولا إلى الحزب البلشفيّ الّذي كان حزبا أقلّيّا جدّا ولم يتسنّ له الاستيلاء على السّلطة إلاّ مع انهيار روسيا القيصريّة خلال الحرب العالميّة الأولى.

بدأ كلُّ شيءٍ في مجال التّقنية الحديثة من صنع أقلّيّة منحرفة؛ فالمحرّك البخاريّ اخترعه جيمس وات James Watt في عام 1784، ثمّ انتشر بعد ذلك. وفي ميدان الطّيران، كان كليمنت آديرClément Ader وبعض المستنيرين هم من صنعوا الطّائرات الأولى، وكذلك كان الحال في التّصوير السّينمائيّ مع توماس إديسون Thomas Edison والأخوين لوميار les frères Lumière، وهلمّ جرّا.

إنّ التّاريخ لا يتقدّم أبدا على شاكلة نهر عظيم، بل بطريقة متعرّجة مثل سرطان البحر، وهو يمضي إلى الأمام دائما من خلال فروع منحرفة، ولهذا السّبب يصعب كثيرا التّنبّؤ به لأنّه يعتمد دائما على الابتكار أو الابتداع الّذي لا يمكن لأحد أن يتكهّن به قبل وجوده ما لم يتمّ وأد الابتكار في المهد. ذلك أنّ المبتكرين ينظَر إليهم على أنّهم مجانين، وبما أنّ الجنون موجود في مكان آخر فإنّه من الصّعب معرفة أين هم المجانين الحقيقيون وأين هم المجانين المزيّفون.

دعونا نتخيّلْ مراقبا أتى من كوكب آخر قبل ملياري سنة، ووصل إلى الأرض وهو يبحر في سفينة فضائيّة. لقد رأى هذا المراقب كوكبا يرتجّ بسبب الانفجارات البركانيّة والموجات الطّوفانيّة والاهتزازات الأرضيّة، فكتب تقريرا إلى المركز الوطنيّ للبحوث العلميّة التّابع لكوكبه قائلا: «لن يحدث أيّ شيء على هذا الكوكب أبدا، لأنّه محكوم بالفوضى المطلقة». لم يتمكّن هذا

المراقب إذن من إدراك أنّ أحاديات الخليّة كانت قد بدأت بعدُ تتدفّق على المياه. وبعد بضعة ملايين من السّنين، أي قبل عشرة آلاف سنة أو عشرين ألف سنة من الآن، وصل إلى الأرض مراقب آخر، فرأى بشرا يمسكون أقواسا وسهاما، فخاطب نفسه قائلا: «هذا ليس سيّئا، ولكنّهم لن يذهبوا بعيدا»، إنّه لم يتوقّع بطبيعة الحال ظهور ناطحات السّحاب وصواريخ الفضاء، على الرّغم من أنّه هو نفسه قد قدم على متن سفينة فضائيّة.

- **عدم إمكانيّة التّنبّؤ بالتّطوّر**

إذن، يتّسمُ التّاريخُ عموما، والتّاريخُ البشريّ خصوصا، بهذه السّمة الّتي تجعله غير قابل للتنبّؤ به تماما، وسيكون مستقبل البشريّة نفسه غير قابل للتّنبّؤ وبعيدا عن التّوقّع وخلاّقا على أيّة حال، لأنّ رؤيتَنا للمستقبل تنطوي على العديد من أوجه الغموض والفجوات والألغاز والأسرار.

إنّ الفرق بين اللّغزِ والغموض هو أنّنا عندما نواجه لغزا ما، في الرّواية البوليسيّة على سبيل المثال، سنصل في النّهاية إلى تفسير عقلانيّ له، وقد وجد العلم بالفعل حلولا للعديد من الألغاز. أمّا الغموض، فهو ما لا يمكننا حلّه، وما لا يسعنا فهمه؛ على غرار لماذا كان الكون كونا؟ ولماذا وُجد شيء مّا بدلا من لا شيء؟ وما هو اللّغزُ الّذي سننجحُ في معرفته؟ وما هو الغموض الّذي

سيظلُّ مستعصيا على فهمنا وعقلنا وفكرنا ودماغنا؟ إنّنا لا نملك أيّ جواب على كلّ هذه الأسئلة.

ولكنّ إمكانيّة وجود تفكير شامل هي إمكانية واردة؛ إنّه تفكير يأخذ بعين الاعتبار هذه الألغاز وهذا الغموض وغير المتقَّع، كما يأخذ في اعتباره حقيقةَ أنّ الكثير من المعطيات الرّاهنة عن علم الكونيات والتّأنسن سيكون بإمكاننا مراجعتها من خلال اكتشافات وأفكار ونظريات جديدة.

ومع ذلك، فإنّنا نحتاج إلى أن نحدّد موقعنا في هذا العالم، وأن نضعه هو نفسه في إطاره قبل أن نفعل ذلك مع أنفسنا. ولهذا السّبب أنا أعتقد أنّه بإمكاننا الحصول على السّرديّة الكبيرة الشّاملة، وأعني بها هي السّرديّة الّتي تشتمل على العناصر الّتي يتشكّل منها ما هو شامل، وتُدرِجُ فيها المعوقات بطبيعة الحال.

(5)

الحقبة العالميّة

تعود العولمة الأولى إلى عصور ما قبل التّاريخ، عندما انتشر الجنس المسمّى الإنسان العاقل، أي جنسنا نحن البشر، انطلاقا من إفريقيا ربّما، على جميع القارّات وليس في آسيا والأمريكتين فقط، بل وأيضا في جزر أوقيانوسيا وأستراليا. تتميّز هذه العولمة الأولى كما رأينا سابقا بتنوّع شديد لم يلحق بنيةَ تلك المجتمعات الّتي كانت مجتمعات صيّادين-قاطفي ثمار أو صيّادين-ملتقِطين، بل طال الثّقافات واللّغات المنفصلة عن بعضها البعض. ذلك أنّ التّأقلمَ مع المناخ ومع الجغرافيا هو الّذي كان يحدّد أنواع المأكولات والملابس والأخلاق والأساطير الفريدة.

سيكون من التّعسّف أن نقوم بتحديد تاريخ، ولكنّني أذهب، كما ذكرت سابقا، إلى أنّ عام 1492 يمثّل تاريخا مناسبا جدّا. فهو التّاريخ الّذي وصل فيه كريستوف كولومبوس إلى مكان كان يعتقد أنّه الهند ولكن سيكتشف أنّه أمريكا، كما انطلق فيه ماجلان وفاسكو دي غاما في رحلتهما البحريّة حول المعمورة. وبعد ذلك بزمن قصير، سيكتشف كوبرنيك أنّ الأرض كوكب يدور حول

الشّمس[4].

لقد أفضت هذه الاكتشافات الكبرى إلى هيمنة القوى الاستعماريّة الّتي كانت تمثّلها كلّ من إسبانيا والبرتغال ثمّ فرنسا وإنجلترا، هيمنة سيتوسّع مداها لتشمل جميع أنحاء العالم.

وبلغت هذه الحقبة العالميّة ذروتها مع الحربين العالميّتين في القرن العشرين، وبدأت البلدان المستعمَرة أو شبه المستعمَرة في نهاية الحرب الثّانية عمليّة جديدة من التّحرّر، السّياسيّ على الأقلّ. أضف إلى ذلك ظهور اللّيبراليّة الاقتصاديّة الجديدة الّتي أقلعت بداية من الثّمانينات مع سياسات رونالد ريغن ومارغريت تاتشر على وجه الخصوص. ومنذ ذلك الحين، غمر ما يسمّى باقتصاد السّوق، أو لنقل الاقتصادَ الرّأسماليّ، العالم بأسره تقريبا بما في ذلك الصّين.

خلال فترة التّسعينات، نمت وحدة العالم الاقتصاديّة جنبا إلى جنب مع ازدهار تكنولوجيا الاتّصالات والتّقنية الاقتصاديّة، وهي سيرورة يمكن تسميتها بالعولمة.

ما يبدو متناقضا جدّا إذن، هو أنّ هذا التّوحيد التّقنيّ والاقتصاديّ والاتّصاليّ قد صاحبته زيادة في بلقنة الكوكب، ولعلّ المثال الأبرز على ذلك هو انفجار الاتّحاد السّوفييتيّ؛ فقد تفكّكت الإمبراطوريّة السّوفييتيّة العظمى وانقسمت إلى دول

(4) .Des révolutions des sphères célestes, Nicolas Copernic, 1954.

حديثة الاستقلال مثل أوكرانيا وتركمانستان وبيلاروسيا وجورجيا وأذربيجان وأرمينيا الّتي اندلعت فيها نزاعات طائفيّة.

كما انفجرت يوغسلافيا، هذا البلد الّذي يتكوّن أساسا من السلاف الجنوبيين وإن كان يحتوي أيضا على تنوّع ثقافيّ من حيث أصوله. فقد كان سكّانه موزّعين بين الإمبراطوريّة البيزنطيّة الأرتودوكسيّة (صربيا) والإمبراطوريّة النّمساويّة الكاثوليكيّة (كرواتيا)، ولكنّ ذلك لم يمنع هذه الأمّة من أن تكون لها وحدة لغويّة لا جدال فيها، وإن لم تكن كافية لوحدها لضمان وحدتها السّياسيّة. وهكذا ستندلع بين الأشقّاء حرب هي من أفظع الحروب، ستؤدّي إلى تفكّك مكوّناتها المتنوّعة إلى دول مختلفة.

في نفس الوقت، انفصلت جمهوريّة تشيكيا وسلوفاكيا وقوّضتا من ثمّ وحدة تشيكوسلوفاكيا التّي كانت تبدو وحدة راسخة، فيما اندلعت الثّورة الإسلاميّة في إيران تحت قيادة آية الله الخميني في عام 1979، ممّا سيفضي إلى انغلاق البلاد على نفسها.

هذه هي المفارقة الكبرى: توحيد لا يمكن إنكاره من جهة، وبلقنةُ الإمبراطوريات والأمم الّتي كانت تبدو متّحدة وتفكّكُها من الجهة المقابلة.

وهذا يعني أنّ التّوحيد التّقنيّ الاقتصاديّ القائم على غوربة occidentalisation الحضارات يثير ردود فعل لدى مختلف الثّقافات الّتي تريد المحافظة على هويّتها، وبالتّالي فإنّ هذا التّوسّع

التّقنيّ الاقتصاديّ يحتوي بداخله على حركة مزدوجة.

- عندما تصبح العولمة كوكبة Globalisation

لماذا من المفيد أن نستخدم كلمتي عولمة وكوكبة معا، على الرّغم من أنّ كلمة كوكبة Globalisation هي المستعمَلة بشكل أساسيّ في العالم الأنغلوسكسونيّ؟ يجب علينا أن نربط بين هاتين اللّفظتين: فالعولمة تعني اتّساع عمليّة الاتّصال والاعتماد المتبادل وتضخّمها، وأنّ هذا التّضخّم يخلق واقعا يتّسم بالعالميّة؛ فهناك إذن تفاعلات انعكاسيّة دائمة بين الدّول الّتي تشملها العولمة والواقع العالميّ، إذ يقوم العالميّ بتعديل المحلّي، ولكنّ حدثا محلّيّا طارئا، على غرار الهجوم على برجي مانهاتن، قد تكون له تداعيات على الواقع العالميّ. ولا يؤثّر هذا الواقع العالميّ فقط على الأقاليم والاقتصاد وسوسيولوجيا الأمم، بل أيضا في كلّ شخص منّا على وجه التّحديد. بتعبير آخر، إنّ العالم، بوصفه كذلك، موجودٌ بداخل كلّ منّا في كلّ لحظة من لحظات وجودنا.

ففي الصّباح، نستمع إلى الرّاديو عبر جهاز مصنوع في اليابان وهو يذيع كمّا هائلا من الأخبار المختارة من أنحاء العالم، أو نشغّل التّلفزيون الّذي تمّ تجميع قطعه في آسيا دون شكّ. وسنرتدي قميصا من القطن المستورد من الهند أو من مصر، ثمّ نتدثّر بسترة من صوف غنم أستراليّ منسوجة في مانشستر. سنتناول فطورا قد

يحتوي على الموز والأفوكادو والأناناس القادمة كلّها من الأمريكتين أو من إفريقيا، بعد أن نكون قد أخرجناها من ثلاّجة ألمانيّة. وسنتابع يومنا مع هاتف ذكيّ فنلنديّ أو كنديّ أو أمريكيّ، ونستخدم حاسوبا أمريكيّا مصنوعا في آسيا، وسنقود سيّارة قد تكون كوريّة أو رينو فرنسيّة مصنوعة في رومانيا، ووقودها مستورد من الجزيرة العربيّة. سوف نتناول غداء يتكوّن من تبّولة لبنانيّة أو من سوشي في مطعم شبه يابانيّ ولكنّه في الحقيقة صينيّ، وسوف نتعشّى لحم خروف من زيلندا الجديدة ومعكرونة نسينا أنّ أصلها صينيّ، مع طماطم مزروعة في أمريكا الجنوبيّة. في المساء، سوف نشاهد مسلسلا تلفزيونيّا أمريكيّا وننام على هدهدة موسيقى استرخاء ما بعد بوذيّة. قد يعترض على هذا أحدهم زاعما أنّ الأمر يختلف كثيرا عند سكّان إفريقيا على سبيل المثال. ولكنّ العالم موجود في كلّ واحد من هؤلاء أيضا، ولو بطريقة خاصّة لأنّ السّكّان يُضطرّون إلى مغادرة قراهم بعد أن قامت الزّراعة الصّناعيّة الّتي تخدم مصالح البلدان الأجنبيّة بإقصائهم، ولأنّهم يذهبون إلى مدن الصّفيح... ومع ذلك، فإنّهم يعثرون فيها على قمصان مستعملة تحمل نقوشا مكتوبة باللّسان الإنجليزيّ، وسيحصلون على أطباق صناعيّة من الألومنيوم، وسيصنعون أكواخهم/ بيوتهم من موادّ الخردة، وسيكونون قادرين على أن يصنعوا لأنفسهم درّاجة ببعض قطع من الغيار... باختصار، إنّهم يتدبّرون حياتهم بأيّة طريقة كانت، وفي خضمّ كلّ

ذلك، يحمل هؤلاء السّكّان العولمة بداخلهم أيضا، ولكن بطريقة مختلفة عنّا.

- تأثيراتُ الكوكبة

تحمل سيرورة العولمة أبعادا ثلاثة لا يمكن الفصل بينها، هي العولمة والتّنمية والغوربة. من البديهي أنّه لا تزال هناك زُمرة من دعاة «العولمة السّعيدة»، وهذا التّعبير هو عنوان كتاب لآلان مينك Alain Minc[5]، ولكن هناك أيضا من يعارض العولمة التّعيسة ويعتبرها سلبيّة بشكل مطلق.

إن الجانب الّذي يبدو إيجابيّا في العولمة هو وصول بعض مظاهر التّقدّم المادّيّ، التّقنيّ والطّبّيّ والاقتصاديّ، إلى جميع البلدان المعروفة سابقا باسم العالم الثّالث، ولكن بشكل غير متكافئ للغاية. ففي الصّين والبرازيل وغيرهما أخذت تتشكّل طبقات وسطى تعيش حسب المعايير الغربيّة، فتقلّصت تبعا لذلك السّلطةُ غير المشروطة لربّ العائلة الّذي كان في السّابق هو من يقرّر زواج الأبناء، واكتسبت الأجيالُ الشّابّةُ حرّيّاتٍ أكبر سواء في حياتها اليوميّة أو في اختيار الزّوج، وحتّى في اختيار المهنة أحيانا، وأصبحت النّساء هنا وهناك أقلّ خضوعا. هناك إذن تقدّم جزئيّ للدّيمقراطيّة وغير متكافئ وظرفيّ أحيانا.

(5) .La Mondialisation heureuse, Plon, 1997.

فالجانب الإيجابيّ في تطوّر النّزعة الفرديّة إذن هو اكتساب الاستقلاليّة والمسؤوليّة الذّاتيّتين.

أمّا الجانب السّلبيّ في العولمة فيتمثّل في المقام الأوّل في أنّ هذه النّزعة الفرديّة في حدّ ذاتها يمكن أن تفضي إلى الأنانيّة، وأنّ هذه الأنانيّة يمكن أن تتحرّر أكثر من قيودها وتنفلت من عقالها إلى أن تؤدّي الغوربة إلى تقويض أشكال التّضامن التّقليديّ. ولا يقتصر هذا التّدمير على الأُسرة الموسّعة الّتي كانت ملاذا هامّا للتّضامن في مواجهة البؤس، مع كثرة الأطفال والأجداد والأعمام والخالات وأبناء العمّ، بل يطال أيضا شبكات من التعّاون الّتي كانت موجودة بين الجيران وهي أشكال من التّضامن العفويّ في مواجهة صروف الدّهر. كلّ أشكال التّضامن هذه آيلة إلى الاضمحلال.

السّياحة من جهتها، ليس بوسعها إلاّ أن تؤدّي إلى مزيد تفاقم تراجع الضّيافة، لأنّ جزءا من سكّان الشّعوب المتوسّطيّة أو الإفريقيّة قد كفّ عن إبداء حسن التّرحيب والوفادة المعهودين لديه، وصار يستغلّ السّيّاح غير المدركين للقيمة الحقيقيّة للأشياء والعملة.

ما من مكان في العالم وُجد فيه بالفعل تسلّط واستغلال إلاّ وانبثقت داخله أشكال جديدة من الاستغلال النّاجم عن الرّأسماليّة أو الشّركات متعدّدة الجنسيات أو الشّركات الغربيّة

الكبرى بدرجة أولى، وعن بلدان جنوب غربيّ آسيا كاليابان أو الصّين بدرجة ثانية. أشكال استغلاليّة جديدة مثل عمالة الأطفال الّتي انتشرت على نطاق واسع في مصانع عدد من البلدان على غرار إندونيسيا وتايلاند والصّين، وتستفيد منها شركاتٌ غربيّةٌ كبرى ذات أسماء رنّانة بدءا بشركة آبل Apple وصولا إلى دُور الأزياء الجاهزة ودور الخياطة.

فضلا عن ذلك، تفضي الزّراعة الصّناعيّة المستعمَرَة إلى فقدان البلدان المتضرّرة لاكتفائها الغذائيّ الذّاتيّ، ولا يصل إلى البلدان المستهلكة سوى منتجات نمطيّة لا طعم لها، مثل طماطم البيوت المكيّفة في المغرب، تغطّيها أحيانا مبيدات حشريّة أو موادّ سامّة. كما أنّ مادّة الغليفوسات المصنوعة في مونسانتو Monsanto وغيرها من الموادّ الّتي قد تكون مسبّبة للسّرطان وفقا للوكالة الدّوليّة لبحوث السّرطان (CIRC)، قد انتشرت على نطاق عالميّ في حقول الحبوب والبساتين.

وفي نفس الوقت الّذي يتحقّق فيه نوع من الرّخاء الملائم لتشكّل طبقات وسطى تعيش وفقا للمعايير الغربيّة، يجري تطوّر جديد يتحوّل فيه الفقر إلى بؤس شديد.

قدّمَ مجيد راهنيما Majid Rahnema، المفكّرُ الإيرانيّ والموظّف السّابق في الأمم المتّحدة، هذا التّمييز المعبّر جدّا بين الفقر والبؤس: قد يكون هنالك فقر بكرامة، مثل فقر الفلاّح

الصّغير الّذي يزرع بعض الهكتارات ويمارس الزّراعة متعدّدة المحاصيل، ويملك ماعزا أو بقرة، ويتعرّض لتقلّبات المناخ أو السّوق، ولكنّه يحتفظ مع ذلك بالحدّ الأدنى من استقلاليّته. وهنالك بؤس يضرب البروليتاريا في مدن الصّفيح. حتّى في مدن الصّفيح هذه، في عالم الفقر هذا، لا يهبط الفقر إلى مستوى البؤس في الأماكن الّتي لا تزال محافظة على عرى التّضامن بين الجيران وبين أقارب الأسرة الموسّعة، حيث توجد أعمال صغرى ليس همّها الوحيد هو الرّبح، وإنّما الشّرف واحترام الصّداقة أيضا، وحيث يقوم الواحد بإقراض الآخر ويثق فيه.[6]

عندما ننظر إلى حزام الأحياء الفقيرة المحيط بالمدن الكبرى في أمريكا اللاّتينيّة وآسيا وإفريقيا، يحصل لدينا انطباع بأنّ تفاقم البؤس يبدو أكبر بكثير من تنامي الازدهار الّذي تستفيد منه الطّبقات الجديدة. ولذلك، فإنّ سيرورة العولمة-الكوكبة المستمرّة هي سيرورة متناقضة للغاية.

لو نقوم بتنزيل هذا التّطوّر الشّامل في سياقه الزّمنيّ فسوف نرى أنّ ما يميّزه هو خروجه عن السّيطرة تماما، خاصّة في مساراته العلميّة والتّقنيّة والاقتصاديّة، لأنّ مصير العلم أضحى خارجا عن السّيطرة. فالفيزياء النّوويّة، الّتي كانت في الأصل تخصّصا

(6) . مثلما أظهرت ذلك صباح أبو السّلام في بحوثها، انظر على وجه الخصوص Pauvreté urbaine et comportements résidentiels à Marrakech, thèse de doctorat, Université Paris

تأمّليّا صرفا، صارت في فترة لاحقة قادرة على صناعة الأسلحة ومحطّات الطّاقة النّوويّة الّتي تتّسم نوعيّة أنشطتها بغموض شديد. كما أنّ تطوّر الكيمياء قد سمح بتطوير الأسلحة الكيمياويّة، وهناك الآن إمكانيات للتّلاعب بالجينات أو الدّماغ لدرجة أنّ بعض علماء الوراثة يجدون أنفسهم واقعين في دائرة الرّبح الصّناعيّ. أمّا الصّناعة الطّبيّة، وعلى الرّغم من أنّها معنيّة بالصّحّة كلّيّا، فإنّها تشكو هي نفسها من نقص في الرّقابة ممّا يجعلها تعاني من فساد داخليّ كُشِف النّقابُ اليومَ عن جزء منه، وتَقوم بصناعة أدوية قد تكون أضرارها أكثر بكثير من فوائدها.

إنّ الأفق الإيجابيّ والمفيد لإطالة أمد الحياة بفضل الخلايا الجذعيّة لن يستفيد منه في المنطلق سوى الأثرياء والأقوياء، شأنه في ذلك شأن الخلود في مصر القديمة الّذي كان حكرا على الفراعنة والنّبلاء. وهكذا فإنّ تطوّر العلوم ليس خاضعا للرّقابة، ويمكن القول إنّ التّقنية هي لسان إيزوب، وإنّه من الممكن استخدامها لأيّ غرض من الأغراض. إنّها تُستخدَم أيضا لقمع العمّال إذ يتمّ إخضاعهم إلى هذه التّقنية من أجل مصلحة أولئك الّذين يمسكون بزمام السّلطة الاقتصاديّة أو السّياسيّة.

لقد أمسى البشر بشكل متزايد في خدمة التّطوّر التّقنيّ عوضا عن أن يكون هذا التّطوّر في خدمتهم. فالتّنافسيّة كما يتمّ التّرويج لها أو كما تمارَس اليوم تتجسّد على أرض الواقع في حقيقة أنّ المؤسّسات تنجح في إثقال كاهل معظم العاملين فيها لتصبح

قادرة على تسريح عدد منهم، أو تعويضهم بروبوتات أكثر فأكثر ذكاء، وهو ما يجرّ إلى البطالة.

إنّ الاقتصاد العالمي منفلت بدوره من أيّ رقابة؛ فعلى خلاف ما تنبّأ به معظم خبراء الاقتصاد الرّسميين قبل عام 2008، فإنّ الاقتصاد معرّض لأزمات خطيرة لا يعرف أحد عواقبها، ذلك أنّ نوعا من الورم قد استشرى في هذا الاقتصاد: ألا وهو خضوعه لهيمنة رأس المال الماليّ المُضارِب الّذي يستخدم المداولين والمعلومات عن البورصات الوطنيّة ليكون قادرا على المضاربة في الأموال أو في الموادّ الخام.

- **التّوسّع الحضريّ الهائل**

فرنسا، التّي كانت لا تزال إبّان الحرب الأخيرة بلدا نصف حضريّ نصف ريفيّ، أصبحت اليوم بلدا حضريّا في غالبيته العظمى، مع ما ينجرّ عن ذلك من عواقب وخيمة ناجمة عن تصحّر المناطق الرّيفيّة وتنمية الزّراعة وتربية المواشي الصّناعيّتين اللّتين يأتيان بمضارّ أكثر بكثير من المنافع. كلّ ذلك يجري على حساب الفلاحة الزّراعيّة والزّراعة الإيكولوجيّة. ويتوقّع علماء الدّيمغرافيا أنّ التّوسّع الحضريّ سيشمل 85٪ من البشريّة خلال بضعة عقود.

ليست المدن الضّخمة الهائلة وحدها هي الّتي ستشهد نموّا،

ولا النّسيج الحضريّ الممتدّ على مئات الكيلومترات مثل نسيج طوكيو في أوزاكا فقط، بل أيضا المدن المختنقة والمزدحمة المحاطة بأرياف لن توجد فيها إلاّ الفلاحة وتربية المواشي الصّناعيّتان، بما في ذلك الاستزراعُ البحريُّ لأسماك السّلمون والتّروتة... إنّ التّربية الصّناعيّة للأبقار والخنازير والدّجاج، وتربية الأسماك المكثّفة، تقومان بحشو الحيوانات بأغذيّة تسمين وفضلات غذائيّة ومضادّات حيويّة بينما يتسبّب تلوّث المحيطات المتفاقم في تدهور صحّة الأسماك الطّبيعيّة وجودتها.

في قلب كلّ ذلك، يجري التّدمير البيئيّ للكوكب. فالاتّجاه نحو الاحتباس الحراريّ، سواء أكانت مصادره بشريّة أم طبيعيّة، يتأكّد في القطبين الجنوبيّ والشّماليّ من خلال ذوبان الجليد. كما أنّ إلحاق الضّرر بالتّنوّع البيولوجيّ من خلال القضاء على الغابات على سبيل المثال، يدمّر المنظومات البيئيّة بشكل كبير، ويجعل صحّتَنا مهدّدة بالغذاء الملوّث الذي ينتظرنا في طعامنا، فضلا عن استهلاك الطّبقات الوسطى المفرط، أي ما يسمّى بالنّزعة الاستهلاكيّة، الّذي يجعلنا نلتهم مأكولات مشبَعة بالسّكّريات والموادّ الحافظة.

ولو يستمرّ هذا الاحتباس الحراريّ طويلا فإنّه سيتسبّب في حدوث هجرات لا حصر لها؛ فهناك جزيرة في أوقيانوسيا توشك أن تغرق بالفعل بسبب ارتفاع المياه، ورغم ذلك فإنّ التّدابير المضادّة ضعيفة للغاية. فقد باء مؤتمر ريو بالفشل، وربّما يكون

الاستعداد جاريا الآن لعقد المؤتمر الأخير، ونعني به مؤتمر باريس في عام 2015، الّذي يكرّس نيكولا إيلو Nicolas Hulot نفسه لضمان نجاحه.

إنّ الطّامّة الكبرى تكمن في أنّ الدّول والشّركات تدفع باتّجاه نمّوّ غير محدود وغير محدّد زمنيّا، والحال أنّنا نعلم أنّ الكوكب لا يمكنه أن يتحمّل استخدام ملياري صينيّ وهنديّ سيّارة طول الوقت، ولا يعني هذا أنّني أدعو إلى استبعاد السّيّارة تماما من حياتنا، بل إلى تنظيم استخدامها دون حرمان النّاس من التّمتّع بهذه الأداة الّتي هي في نفس الوقت لعبة البالغين.

- **وعي محدود للغاية بالمخاطر**

هو وعي محدود جدّا لأنّنا نعاني من صعوبات في التّفكير فيما هو شامل، أي في العلاقة بين الكلّ والأجزاء، وبين الأجزاء والكلّ، وفي التّفاعلات، ومن ثمّ في التّعقيد، والحال أنّنا إذا تركنا المسار يستمرّ على ما هو عليه فسوف نصل إلى مشارف الكارثة. إنّ السّياسة القائمة على تحليل البيانات والمعرفة الكمّيّة تقدّم البرهان على أنّها لا تستطيع التّفكير بطريقة شاملة على الرّغم من أنّ هذا التّفكير أمر حيويّ.

إنّ التّقدير الكمّيّ هو الكلمة المفتاح في حضاراتنا والحال أنّ أهمّ ما في البشر، وأعني به الشّعور والحبّ والفرح والحزن والأسى والألم والكراهية، خارج تماما من أيّ حساب.

العديدُ من خبراء الاقتصاد وجميعُ أولئك الّذين يعيشون في عالم الحساب يسيئون فهمَ كلّ هذا، ومن جديد يتبيّن أنّ التّحديد الكمّيّ والانغلاق هما عدوّان للفهم.

هناك وجه آخر من وجوه العولمة السّلبيّة ألا وهو فقدان الماضي، والمقصود به هو هذا النّزوع إلى العيش المكتفي بلحظته الرّاهنة دون التّفكير في الآتي. ناهيك عن خسران المستقبل؛ فقد توقّف النّاس عن الإيمان بأنّ التّقدّم قانون لا مفرّ منه وضروريّ للتّاريخ ومثمر، ومن الآن فصاعدا، استقرّ فيهم الشّكّ في المستقبل.

في عمليّة الرّجوع إلى الماضي، لم تعد الأديان تَعِدُ بالجنّة الأرضيّة، تلك الجنّة الّتي ضاعت في الاتّحاد السّوفييتيّ وقد تحقّقنا من ضياعها بأمّ أعيننا، بل إنّ ما تعد به هو جنّة سماويّة، وهي ما لا يمكن لأحد أن يتحقّق من وجودها. ومع الحاجة إلى العودة إلى الجذور، وفي خضمّ القلق الّذي تفاقم من جرّاء الأزمة الاقتصاديّة، تزدهر النّزعات الارتداديّة والميول الانغلاقيّة والعنصريّة وكره الأجانب والخوف من الآخر والخوف من الجميع والخوف من كلّ شيء، بدلا من أن ندرك أنّنا مرتبطون جميعا بالكوكب ارتباطا تبادليّا، وأنّنا نعيش مصيرا واحدا ما فتئ يوحّد بين جميع البشر.

إنّنا لا نعيش أزمة اقتصاديّة وحسب؛ فالحضارةُ الغربيّة وهي

تنتشر في الكون تضع الحضارات التّقليديّة، فضلا عن الحضارات الأثريّة، في أزمة مريعة، والمفارقة هنا هي أنّ الحضارة الغربيّة ذاتها الغارقة في أزمة، تقدّم نفسها للبلدان النّامية على أنّها حاملة للعلاج الشّافي، والحال أنّها تحمل فيروس الأزمة داخلها.

بوسعنا القول إنّ جميعَ الحضارات تعيش في أزمة؛ فالحضارات التّقليديّة ممزّقة بين الأصالة والحداثة، بين العودة إلى الينابيع والغوربة، وفي فرنسا، تنمو الجوانب الانتكاسيّة من حضارتنا في وقت تتراجع فيه الجوانب التّقدّميّة. إنّها أزمةُ حضارة، أزمة تاريخيّة عميقة.

ولكن، ألا يزال بإمكاننا أن نغيّر السّبيل؟ ليس هناك ما يشير إلى إمكانيّة هذا التّغيير، على الرّغم من وجود مبادرات خلاّقة، ولكن مشتّتة وجنينيّة.

صحيح أنّنا نرى المبادرات المبتكرة تتكاثر في كلّ مكان، على غرار تطوّر الزّراعة الخضراء أو الزّراعة الحراجيّة في المناطق الرّيفيّة، ونرى في جميع أرجاء العالم مدنا تقوم ببناء أحياء بيئيّة écoquartiers، ونرى سعيا لأنسنة humanisation الحياة الحضريّة وإيجادِ صيغ جديدة لمدن خالية من التّلوّث بالنّظر إلى أنّ مصادر الطّاقة فيها ستكون نظيفة، ونرى حركة مرور كهربائيّة أكثر فأكثر، وقد ذكرت بعضِ هذه المبادرات في «المنهج»[7].

(7). La Voie, Fayard, 2011.

ولكنّ جميع هذه المبادرات مشتّتة للغاية ولم تلتق بعدُ، فليس هناك منظّمة واحدة أو حزب سياسيّ واحد أو جمعيّة واحدة يهتمّ بالتّقريب بين هذه المبادرات وبالتّعريف بها.

نرى أيضا مبادرات على الصّعيد الاقتصاديّ، ومنها الاقتصاد الاجتماعيّ والتّضامنيّ الّذي يقتدي بطريقة الاتّحادات والتّعاونيات القديمة. فجمعيّة روزفلت[8] مثلا، تحاول أن تقدّم بديلا للتّقشّف وتقترح سبيلا لإحداث انتعاش جديد خصوصا في مجال الاقتصاد الأخضر . l'économie écologisée وفي مجال العمل الإنسانيّ، تشهد «حركة البيان التّعايشي» تطوّرا يعيد إلى الواجهة فضائل التّعايش والاعتراف بالآخر، لا سيما وأنّ اختفاء الكياسة في التّعامل وانتشار المجهوليّة (عدم كشف الشّخص عن هويّته) يؤثّران على حياتنا. فالكائن البشريّ يحتاج إلى اعتراف الآخرين به كما هو، وجميع المحاولات النّاجحة كتلك الّتي جرت مع شباب الأحياء الفقيرة في ريو أو ميديلين هي محاولات تنبني على حقيقة أنّ الأطفال يستحقّون الاعتراف والاحترام، وبهذا ينجون من الجنوح. هي ذي مبادرات جديرة بأن يتمّ تعميمها، ولا سيما في ربوعنا.

(8) . هي حركة مواطنيّة للفعل وللتكوين السّياسيّ أسّسها في عام 2012 كلّ من ستيفان أسّال وسوزان جورج وسينتيا فلوري وبيار لاروتيرو وإدغار موران.

- خلق الوحدة داخلَ التّنوّع

ستتكوّن عناصر هذا السّبيل الجديد من التّوليف بين أفضل ما هو موجود في كلّ حضارة؛ فعندما تتدخّل الحضارة الغربيّة في بلد كالمغرب أو تونس على سبيل المثال، فهي تحمل إليه أفكارا عن الدّيمقراطيّة وأخرى عن حقوق الإنسان، كما تحمل معها الدّواء... أي عددا من الرّسائل الإيجابيّة. ولكنّ هذه البلدان فيها أيضا أدوية تقليديّة أثبتت فعاليتها، فلا بدّ حينئذ من أن يكون هناك تكامل بين الأدوية. علاوة على ذلك، نجد في بلدان إفريقيا السّوداء تعاونا بين السّحرة والشّامان من جهة، والأطبّاء من أصل فرنسيّ من جهة أخرى، ناهيك عن الطّبّ الصّينيّ والطّبّ الهندوسي اللّذين يتمتّعان بوسائل علاجيّة وأساليب مكمّلة لطبّنا، والدّليل على ذلك هو أنّ العلاج بالوخز بالإبر قد دخل إلى ربوعنا.

إنّ الوحدة هي كنز التّنوّع البشريّ كما أنّ التّنوّع هو كنز الوحدة البشريّة، فما هي الحاجة الأساسيّة الّتي يصبو إليها كلّ كائن بشريّ وتبرز في أحلك الظّروف التّاريخيّة إن لم تكن هي تحقيق شخصيّته في صلب مجموعةٍ عضويّة ينتمي إليها؟

إنّ التّنمية الشّخصيّة بمنأى عن المجموعة ودون حبّ هي تنمية لمركزيّة الذّات والأنانيّة، وإذا هيمن المجتمع فإنّ التّنمية الفرديّة سيصيبها الاختناق، وإذا أردنا أن نبدع نهجا جديدا

فينبغي علينا أن نتخلّى تماما عن التّفكير الثّنائيّ الّذي يسود اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى. إنّ هذا التّفكير الثّنائيّ، هذا التّفكير البدائليّ par alternative، هو ذاك الّذي يفكّر بطريقةِ إمّا هذا وإمّا ذاك وليس بطريقة هذا مع ذاك.

لا يمكن القول: إمّا نموّ وإمّا تراجع،

بل ينبغي أن نقول: نموّ مع تراجع، وهذا يستدعي أن نفكّر فيما ينبغي أن ينمو وما ينبغي أن يتراجع.

ما ينبغي أن ينمو هو الاقتصاد الأخضر، اقتصادُ الصحّة، اقتصادُ المصلحة العامّة، اقتصادُ التّضامن، والتّربية الجديدة.

وما ينبغي أن يتراجع هو ليس اقتصاد الحرب فقط، وإنّما أيضا اقتصادُ الرُّعونة واللاّجدوى، الّذي نراه في هذه النّزعة الاستهلاكيّة المفرطة consumérisme لدى الطّبقات الوسطى الّتي لا تستطيع مقاومة الإغراء الّذي تسلّطه عليها السّلع شديدة التّنوّع في المحلاّت التّجاريّة الكبرى. وأودّ أن أقول هنا إنّه حتّى اقتصاد خدعة الإعلانات التّجاريّة الّتي تروّج للفضائل العظيمة لمنتجاتها من موادّ التّجميل وموادّ موجّهة للشّباب وغيرها يجب أن يتراجع.

نحن إذن بحاجة ضروريّة إلى تراجع تندرج ضمنه تربية على الاستهلاك. يجب أن تتراجع هذه الصّناعة الّتي تعرض علينا ثلاّجات وسيّارات وحواسيب قد تمّ برمجة عمرها الافتراضيّ

مسبقا بحيث تصبح غير صالحة للاستعمال بعد عشر سنوات، والحال أنّ السّيّارات فيما مضى كانت تُصنَع لتعيش إلى أجل غير مسمّى. وأمّا ما ينبغي أن ينمو فإنّه مهن الصّيانة.

إنّ التّنمية développement والتّغطية enveloppement يحتاجان بدورهما إلى أن نربط بينهما. فكلُّ ما يُعتَبر تنمية بالمعنى التّقليديّ للكلمة، يجب أن يكون مقترنا باحترامِ ما يلفّنا، أي احترام الجماعات والعلاقات الأخويّة. وكلّما تطوّرت العولمة كان لزاما علينا أن نقوم بتفكيكها démondialiser في الوقت نفسه، أي أن نضع أنفسنا في المكان وفي الإقليم، لأنّه لا بدّ من إنقاذ أقاليم برمّتها من الموت الاقتصاديّ الّذي هو في الآن نفسه موت بيولوجيّ. وحين أفكّر في مسألة أوروبّا، فإنّني أؤيّد وجود اتّحاد أوروبّيّ من جهة، ولكنّني مع استقلاليّة الأمم من جهة أخرى.

لئن يتعيّن على الأمم أن تضحّي ببعض من سلطاتها من أجل المصالح المشتركة، فإنّه ينبغي عليها أيضا أن تحتفظ بسلطات كبيرة إلى حدّ ما، بما فيها سلطة الحدّ في حالات معيّنة من بعض الواردات ذات القدرة التّدميريّة الهائلة. أنا مع العولمة إذن، ولكنّني أيضا مع التّحديد الإقليميّ والتّحديد الجهويّ والتّحديد المكانيّ؛ ففي الأقاليم، هنالك الكثير من الحيويّة والكثير من الحرف التّقليديّة الّتي يمكن إحياؤها أو إعادة تطويرها، فضلا عن العديد من الممكنات الّتي يمكن تحقيقها.

- السّبيل الجديد أو التّحوّل

أعتقد أنّ كلمة تحوّل métamorphose هي أكثرُ غنى من كلمة ثورة الّتي أسيء استخدامها كثيرا في معناها العامّ. ومع ذلك، فإنّ من العلامات الصّحّيّة أنّه لا تزال تحدث إلى اليوم ثورات في أمم مختلفة. ولكنّ الثّورة العظيمة في رأيي، ثورةَ «دعونا نكنس الماضي»، قد أكّدت فشلها في الاتّحاد السّوفييتيّ وفي الصّين، وأظهرت أنّ عنفها يمكن أن يولّد عنفا آخر. أمّا كلمة تحوّل فهي تعني أنّه ليس هناك قطيعة مطلقة مع الماضي، بل إنّنا على العكس من ذلك نستعين بالمكتسبات الثّقافيّة لتاريخ البشريّة.

إنّها سيرورة التّحوّل الّتي نعرفها جيّدا عند اليرقة، إذ تبدأ وهي داخل شرنقتها بتدمير نفسها بوصفها يرقة، بما في ذلك تدمير جهازها الهضميّ، لتعيد تشكيل ذاتها بوصفها فراشةً بأجنحة؛ وهكذا تحوّلت اليرقة إلى شيء آخر انطلاقا من نفسها.

إنّنا نعرف مدى الصّعوبة الّتي تجدها الفراشة عندما تنفتح الشّرنقة لتُفرِدَ جناحيها قبل أن تتمكّن من الطّيران، فهكذا هما التّحوّل والولادة لا يتحقّقان إلاّ في الألم. التّطوّر كلّه إذن هو سيرورة خلقٍ تُنشئ دمارا، ولكنّ صيغة «التّدمير الخلاّق» الّتي استعملها جوزيف شومبتر Schumpeter والّتي يتمّ ترديدها في كلّ مكان تقريبا، هي مجانبة للصّواب حسب رأيي: فالخلق هو المُدَمِّرُ؛ فعندما وُلد العالم الصّناعيّ في القرنين السّادس عشر

والسّابع عشر دُمّرت طبقة الفلاّحينَ التّقليديّينَ، وتُعتبَر إنجلترا أفضل مثال على ذلك من خلال حركة الحظائر المسيّجة le mouvement des enclosures. بالتّالي، يجب علينا أن نتساءل عمّا سنغنمه وعمّا سنخسره فيما يسمّى تقدّما ما لأنّه يؤدّي إلى انتكاسة لا مرئيّة أحيانا أو على الأقلّ غير قابلة للقياس الكمّيّ. وكما ذكرْت آنفا، يتسبّب رقيّنا المادّيّ في تدهور العيش المشترك والعلاقات الإنسانيّة.

ينبغي أن ينبثق من التّحوّل مجتمع تندرج فيه الأمم من جميع أنحاء العالم.

ولكنّ هذا الأمر يبدو بعيد الاحتمال اليوم؛ ذلك أنّ المحتمَل بالنّسبة إلى مراقب معيّن في مكان معيّن ويمتلك معلومات جيّدة عن التّيّارات الّتي تأتي من الماضي وتعبر الحاضر، يمثّل استمراريّة في اتّجاه المستقبل، وهذا ما ظننت أنّني قد قمت به حين ذكرت أنّنا إذا واصلنا السّير في هذا الطّريق فسوف نمضي إلى كوارث محتمَلة، ولكن، ما هو الشّيءُ غيرُ المحتمَل؟ إنّه ليس الشّيءَ المستحيل، بل هو ما يمكن أن يحدث بشكل غير متوقَّع.

إليكم أفضلَ مثالٍ من التّاريخ على حصول شيء غير محتمل. في خريف عام 1941 تمكّن الجيش النّازي الّذي سيطر بالفعل على أوروبّا من السّيطرة على الاتّحاد السّوفييتيّ بأكمله تقريبا، فقد حاصر لينينغراد ووصل إلى أبواب موسكو وكان يكفيه أن يشنّ

هجمة جديدة كي يتمكّن من غزوها. فجأة، غمرت الأمطار الغزيرة القوات العسكريّة الألمانيّة وتلاها صقيع مبكّر. كان ستالين في الأثناء قد عيّن جوكوف Joukov، أحد أعظم الجنرالات في هذه الحرب، قائدا أعلى على جبهة موسكو. وفي 5 ديسمبر 1941، شنّ جوكوف الهجوم السّوفييتيّ المضادّ الّذي أجبر الألمان على التّقهقر لمائتي كيلومترا بعيدا عن موسكو.

ولكنّ هتلر كان قد قرّر شنّ الهجوم على الاتّحاد السّوفييتيّ في ماي 1941 وليس في[9] جوان كما فعل، والسّبب هو أنّ موسوليني، زعيم إيطاليا الفاشيّ آنذاك، كان قد دفع بجيشه إلى اليونان لغزوها، ولكنّ الجيش اليونانيّ نجح في ردّ الجيش الإيطاليّ على أعقابه. وهكذا هبّ الجيش النّازيّ لنجدة موسوليني، فعبر يوغسلافيا حيث قاومه الصّرب، وأهدر الجيش الألمانيّ بذلك شهرا قبل أن يقوم بتصفية المقاومة الصّربيّة ورفع العلم النّازيّ أخيرا على البارثينون Parthénon.

كان هناك عامل آخر اعتباطيّ، فقد علم ستالين عن طريق مخبره السّرّي ريشار سورج Richard Sorge، الّذي صرنا الآن نعرف جيّدا قصّته، أنّ اليابان لن تهاجم سيبيريا، وبهذا استطاع أن ينقل جيشه من الشّرق الأقصى إلى جبهة موسكو، فكان ذلك عاملا حاسما في الانتصار السّوفييتيّ. بعد يومين، هاجمت اليابان

(9) . هي مؤسّسة أمريكيّة شبيهة بمجمع فكريّ قويّ تهدف إلى تسليط الضّوء على سياسات صنع القرار وعملياته من خلال البحث والتّحليل.

بيرل هاربور ودخلت الولايات المتّحدة معترك الحرب الّتي أصبحت عالميّة. عندها بدأ المحتمَل يصبح غير محتمَل، وبدأ غير المحتمل يصبح محتملا، وصار المحتمَل قويّ الاحتمال للغاية probabilissime بعد معركة ستالينغراد، أي بعد فترة تراوحت بين ستّة وثمانية أشهر.

غيرُ المحتمَل، أو غيرُ المتوقّع، هو ممكن إذن، والتّحوّل هو ممكن أيضا، والمعركة غير ميؤوس منها تماما. ولكنّ الأمل هو الشّيء الممكنُ وليس الشّيء الأكيد، وإنّه لخطأ كلّيّ أن نضفيَ عليه سمةَ اليقين. وكما قال هيرقليطس Héraclite: «إذا لم تبحث عن الميؤوس منه فإنّك لن تجده.»

(6)

المستقبل: محتمَل وغير محتمَل

- **ما عاد المستقبل اليوم كما كان في الماضي**

لم يعد المستقبل كما كان عليه فيما درجت العادة على تسميته بالعصر الذّهبيّ، أي في تلك السّنوات الّتي تميّزت بالتّطوّر المستمرّ سواء على الصّعيد الاقتصاديّ أو التّقنيّ أو الاجتماعيّ. بدا هذا التّطوّر حينذاك مسترشدا بقانون متحكّم في التّاريخ، هو قانون التّقدّم الّذي بمقتضاه ينبغي أن يكون الغد أفضل من اليوم: التقدّمُ في الحضارة والرّخاء والرّفاهية، وما إلى ذلك. كانت تلك الفترة أيضا هي الحقبة الذّهبيّة لعلم المستقبل futurologie، كما مثّلته شركة راند Rand Corporation، على سبيل المثال، الّتي كانت تضع توقّعات لعشرين أو ثلاثين سنة قادمة، وتبشّر دائما بمستقبل أفضل.

ولكنّ هذا المستقبل قد مات في غضون حلقات معدودة، مع بروز عدّة أحداث غير متوقَّعة:

- حدث ماي 1968 غير المتوقَّع الّذي ثار خلاله جزء من

الشّباب في العديد من البلدان المزدهرة.

- حدث عام 1973 غير المتوقّع، مع اندلاع أزمة اقتصاديّة خطيرة في أعقاب الصّدمة النّفطيّة الأولى وبداية تنامي البطالة ولا سيما في فرنسا.

- حدث عام 1989 غير المتوقّع، مع سقوط جدار برلين وانفجار النّظام السّوفييتيّ، والّذي كانت بدايته تبدو واعدة، ولكنّه سرعان ما شهد تفكّك الاتّحاد السّوفييتيّ ثمّ حربا بين الدّول الأوروبّيّة ظهرت خلالها أوروبّا عاجزة تماما، ونعني بها حرب تفكيك يوغسلافيا.

- حدث عام 2001 غير المتوقّع، مع تدمير برجي مركز التّجارة العالميّ في مانهاتن، والّذي أدّى إلى تدخّل الولايات المتّحدة الكارثيّ في كلّ من العراق وأفغانستان.

- حدث أزمة 2008 الاقتصاديّة غير المتوقّع، على عكس ما تنبّأ به أغلب خبراء الاقتصاد من أنّه لن تحدث أيّة أزمة مستقبلا.

- حدث ربيع 2011 العربيّ غير المتوقّع، وما تلاه من نكسات وحروب أهليّة مدوّلة غير متوقّعة، أحرقت الشّرق الأوسط وليبيا.

كلّ ذلك يدقّ المسمار الأخير في نعش الإيمان بأنّ التّقدّم قانون

تاريخيّ لا يُقاوَم، ويفضي إلى ظهور علم مستقبليات جديد، قام آرييل كولونوموس Ariel Colonomos بتحليله تحليلا مثيرا للاهتمام في كتابه «سياسة العرّافات»[10]. فدراسة المستقبل تجري اليوم في مجاميع الخبراء الفكريّة، وهي بشكل عامّ تنبّؤات قطاعيّة بالأساس، في الاقتصاد مثلا أو في الدّفاع أو في القضايا العسكريّة. إنّهم يحاولون استباق مآل النّزعات الّتي نراها قد بدأت تنتشر بالفعل في الوقت الحاضر، مثل استخدام الإعلاميّة والشّاشات في الحرب كما هو حاصل في الصّراع الدّائر في العراق، واستخدام الطّائرات بلا طيّار في الفترة الأخيرة، وهو استخدام من المرجّح أن يزداد بشكل كبير، وما إلى ذلك. يهتمّ الخبراء والدّول بهذه القضايا العسكريّة أساسا ويهملون إلى حدّ كبير ما عداها. وفي هذا المنظور الخاصّ بعلماء المستقبل هنالك ما أسميّه العقلانيّة الزّائفة؛ فهو ينطوي مثلا على الفكرة المنطقيّة الظّاهريّة الّتي مفادها أنّ البشريّة لا تستطيع أن تنتحر، فضلا عن أنّه لا أحد يريد الانتحار. ولكنّ هذا غير صحيح، لأنّ هناك حالات انتحار، بل وحتّى حالات انتحار إيثاريّ suicides altruistes وفق تعبير ديركهايم، تودي بحياة أشخاص آخرين. من المؤكّد أنّ هؤلاء المنتحرين يفعلون ذلك طواعية، في حين أنّ البشريّة لا تريد الانتحار طواعية، ولكنّها مع ذلك قد تنتحر لا إراديّا. فقد ماتت حضارات، وحتّى الآن لا توجد تفسيرات قطعيّة لموتها،

(10) .La Politique des oracles, Albin Michel, 2014.

على غرار زوال حضارة المايا في المكسيك. كما أنّ فناء حضارة جزيرة إيستر l'ile de Pâques قد يعود إلى الاستغلال المفرط لموارد الجزيرة الطّبيعيّة، ولكنّ خبراء المستقبل يستبعدون فرضيّة الموت هذه ويبحثون عن العناصر الباعثة على الطّمأنينة. أمّا الانقطاعات وتغيير السّياسات والأحداثُ والحوادثُ، فهي لا تندرج في تصوّرهم للمستقبل. إنّ هذا الأخير مرهون ببحثهم المهووس عن الاستقرار، إنّه مستقبل محافظ.

ومع ذلك فإنّ المخاطرة المرتبطة بتطوّر التّكنولوجيات قد تجسّدت بالفعل في حادثتي تشرنوبيل وفوكوشيما، وفي العديد من الحوادث الكبرى، وهي مخاطرة ما انفكّت تتأكّد للعيان يوما بعد يوم.

في كتاب مهمّ جدّا بعنوان «مجتمع المخاطرة»،[11] بيّن إيلريش بيك Ulrich Beck أنّ الخطر ملازم لمجتمعنا التّكنولوجيّ، وفي هذا السّياق يقول آرييل كولونوموس: «إنّ المخاطرة تحثّ السّلطات على استشارة الخبراء الّذين يبدّدون قلقها إلى حدّ ما من خلال تقدير حجم المخاطر وكيفيّة استبعادها، لا سيما وأنّ المخاطر الكبيرة نادرة للغاية». يمكن أن نلاحظ أنّ القلق الّذي ظهر خلال الحادث الّذي وقع في محطّة فوكوشيما اليابانيّة للطّاقة سرعان ما طال الجميع، ولكنّ السّلطات السّياسيّة والاقتصاديّة

(11) .La Société du risque, Auber, coll. « alto », 2001.

فعلت كلّ ما بوسعها لطمأنتهم وأعلنت في الوقت نفسه: «سنستمرّ في برامجنا النّوويّة». في ألمانيا فقط قرّرت أنجيلا ميركل، بعد ضغط الأخصّائيين في البيئة، وقف إنتاج الطّاقة النّوويّة. ولكنّ اللّوبي النّووي في أيّ مكان آخر، بما في ذلك اليابان، يتكتّم على الخطر. إنّهم يبرزون أهمّيّة تدابير السّلامة المتّخذة ويتجاهلون العديد من الحوادث البسيطة الّتي تحدث في محطّات الطّاقة النّوويّة، كما يتكتّمون على أضرار النّفايات الإشعاعيّة، ومن ثمّ يزعم اللّوبي النّوويّ الضّخم أنّه يضمن لنا مستقبلا آمنا.

أمّا المخاطر الكارثيّة الكبيرة فإنّه يتمّ طمسها أيضا إلى حدّ ما، بل بإمكاني القول إنّ التّنبّؤ العلميّ بالاحتباس الحراريّ العالميّ الّذي سيؤدّي إلى اضطرابات بشريّة هائلة، لم يتبعه بعدُ اتّخاذ إجراءات ملموسة. دعونا نأملْ أن يتمّ اتّخاذ القرارات الضّروريّة في مؤتمر باريس لسنة 2015.

- **التّصوّرات الحاليّة لمستقبلنا البشريّ**

بعد أن رأينا معوّقات علم المستقبل هذا، دعونا نلق نظرة على التّصوّرات الحاليّة لمستقبلنا البشريّ.

نجد في المقام الأوّل هذا التّصوّر الّذي لا يزال حاضرا بقوّة في أوساط النّخب المهيمنة والمتمثّل في فكرة نهاية التّاريخ. وفقا لهذا المبدأ، لم يعد بإمكان التّاريخ البشريّ أن يبتدع أيّ شيء جديد

لأنّ الدّيمقراطيّة التّمثيليّة قد توفّرت على أفضل شكل لسياسة المجتمع، ولأنّ الاقتصاد اللّيبراليّ يقوم على أفضل نمط اقتصاديّ. إنّ هذه الفكرة تقوم بوأد إمكانيّة ظهور أيّ تقدّم في المستقبل، بما أنّها تعتبر أنّه لن ترى النّور أيّة حقيقة سوسيولوجيّة أو سياسيّة أو إنسانيّة جديدة، وأنّه ربّما تقع على أقصى تقدير، كما يقولون، حوادث وصراعات وانتكاسات، ولكنّنا لن نستطيع الاتيان بما هو أفضل. إنّه من المحبّذ جدّا حسب رأيي لو أنّ فكرة نهاية التّاريخ تعني نهاية تاريخ قام على الحروب بين الأمم، لأنّه تاريخ فتّاك جدّا، ويفسح المجال لتاريخ ما بَعديّ métahistoire، غير سكونيّ على الإطلاق، بل هو صيرورة أخرى آمل أن تشكّل سبيلا جديدا يفضي إلى تحوّل ما. فنحن نعيش، كما أرى، فيما قبل تاريخ العقل البشريّ وليس في آخره، وبالتّالي لا يزال هناك الكثير ممّا يمكن اكتشافه وممّا يمكن ابتداعه. إنّنا لم نبرح بعدُ العصر الهمجيّ للعلاقات بين البشر وبين الشّعوب وبين الأمم.

هنالك تصوّر آخر يحدّثنا عن الصّراع بين الحضارات، وهو يعتبر أنّ التّناقضات الرّاهنة لن تكون ذات طابع دينيّ فقط، بل وأيضا ذات طابع حضاريّ: لأنّ الحضارات الكبرى، أي الحضارة الغربيّة والحضارة العربيّة ولم لا الصّينيّة، ستجد نفسها مجبرة على الصّدام... تتغذّى هذه الفكرة من تنامي العداوات الدّينيّة المتعدّدة، ويبدو أنّ بعض الأحداث ونخصّ بالذّكر منها

أحداث الشّرق الأوسط تعزّز هذا التّوجّه، ولكن يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أنّ هنالك علاقات تكامل قويّة داخل ما يسمّى اليوم بالعولمة الّتي هي أحد وجوه الغوربة والتّنمية. وإذا تتبّعنا مسار العولمة فإنّنا نلاحظ أنّها تحتوي على ازدواجيّة؛ فمن جهة هناك توحيد تقنيّ واقتصاديّ للمعمورة، ومن جهة أخرى نرى ثقافات تقاوم لتحافظ على أصالتها واستقلالها. إنّ العولمة إذن لا تخلق عداوات فحسب، ولكن أيضا علاقات تعايش وتناغم بين الحضارات.

وهكذا تتجاور ظواهر الوفاق مع ظواهر العداء؛ فحيث تستوطن القاعدة أو داعش يتمّ فرض تطبيق رؤية للشّريعة قائمة على التّعصّب والطّائفيّة، وتكون هناك معارضة صداميّة لا فقط للحضارة الغربيّة وإنّما كذلك للإسلام المسالم الّذي يؤمن به عدد كبير جدّا من السّكّان. فلو نظرنا إلى الإسلام في كلّيته، لرأينا أنّ الأصوليّة لا تمثّل سوى ظاهرة أقلّيّة فيه. كما أنّ الورع الدّينيّ يتزايد وينتشر في إطار من التّعايش الحضاريّ دون أن يؤدّي إلى قطيعة.

ورغم ذلك فإنّ صراع الحضارات هو جزء من التّنبّؤات القابلة للتّحقّق ذاتيّا: فكلّما كانت قناعتك بصراع الحضارات أكبر اتّخذتَ تدابير سياسيّة وعسكريّة أكثر استعدادا لهذا الصّراع الحاسم. وكلّما زاد إيمانك بنهاية التّاريخ رسوخا إلاّ وقويت قناعتك بأنّك لن تعثر على أيّ شيء جديد خارج الدّيمقراطيّة

البرلمانيّة والاقتصاد اللّيبراليّ، ومن ثمّ لن تبحث أبدا عن حلول من نوع جديد. هكذا يصبح المستقبل رهين الحاضر.

هناك عنصر ثالث في سياق محاولة إنارة المستقبل يبدو لي مثيرا للاهتمام، هو مفهوم الأنتروبوسين (المتعلّق بالعصر الثّلثيّ الأوسط - المترجم) l'anthropocène. إنّ تاريخ الكوكب حتّى الآن قد تشكّل من خلال تعاقب عصور مختلفة في المحيط الحيويّ، كالعصر الجليديّ le pléistocène والعصر الميوسيني le miocène...، وها قد تمّ الآن بنجاح له ما يفسّره الإعلان عن فكرة الأنتروبوسين هذه الّتي تعتبر أنّ الظّواهر المناخيّة والبيئيّة والبيولوجيّة لم تعد منذ الآن هي الّتي تحدّد طبيعة العصر الكوكبيّ الّذي ندخله، بل إنّ اقتحام البشريّة الثّوريّ لحياة الكوكب هو ما يحدّد الظّواهر المناخيّة والبيئيّة والبيولوجيّة. لقد أصبحت البشريّة قوّة مزلزلة.

إنّنا نلاحظ اليوم بالفعل، بفضل ما اكتسبناه من وعي بيئيّ، أنّ تطوّرنا الاقتصاديّ والتّقنيّ والعلميّ يؤدّي في الواقع إلى تدهور المحيط الحيويّ. قد يكون هذا التّطوّر هو المتسبّب في الاحتباس الحراريّ العالميّ وقد لا يكون كذلك، ولكنّه على أيّة حال يفضي بما لا يدع مجالا للشّكّ إلى تدهور بيئيّ واسع النّطاق ما انفكّ يتفاقم وينذر بعواقب وخيمة. لذلك، فإنّ فكرة الأنتروبوسين هذه مفيدة جدّا لنا نظرا إلى أنّها تحملنا على إدراك مسؤوليتنا تجاه الطّبيعة، والّتي هي في آن واحد مسؤوليّتنا تجاه

أنفسنا نظرا لارتباط مصيرنا بالطّبيعة؛ ذلك أنّه من الأهمّيّة بمكان أن نكون على وعي بأنّ مصير البشريّة غير منفصل عن مصير الطّبيعة الحيّة، بل يعتمد عليها اعتمادا حيويّا. وهكذا كشف لنا إدراكنا للتّرابطَ الأنتروبولوجي والإيكولوجيّ عن حدود النّموّ الاقتصاديّ. فعلى سبيل المثال، لم يعد كوكبنا الصّغير قادرا على تحمّل تمتّع كلّ فرد من سكّانها الّذين يعدّون بالمليارات بثلاث سيّارات أو أربع، على غرار أيّ مواطن في قطر، لذلك علينا أن نتساءل عن حدودنا، وبإمكاننا، بل من واجبنا، أن نتصوّر محدوديّة احتياطيات الطّاقة المستنفَدَة ومن بينها احتياطيات النّفط والفحم الحجريّ، وأن نعطي الأولويّة للموارد غير المحدودة في الطّاقات الشّمسيّة والهوائيّة والبحريّة، ظالما ظلّت شمسنا تشتعل على الأقلّ، لأنّ لحياتها هي أيضا آجالا كما هو الشّأن لأيّة حياة أخرى.

بالإضافة إلى ذلك، من الضّروريّ كبحُ جماح التّوسّع الحضريّ اللاّمحدود كما يبدو، لأنّه من المحتمل حدوث تدفّقات نزوح جديدة من المدن إلى الأرياف. إنّ محدوديّة النّموّ في مجالي الطّاقة والإنتاج المادّيّ على وجه الأرض لا تعني أنّ نموّا آخر في مجالات الخدمات ورأس المال والإنتاج غير المادّيّ (الإعلاميّ والرّقميّ والفنّيّ) تواجه هذه المحدوديّة. فهذا النّموّ سوف يواجه حدودا من نوع آخر بالتّأكيد مع حدود الحياة البشريّة تحت شمس تتضاءل. بإمكاننا بطبيعة الحال أن نتخيّل أنّنا سنغادر الأرض

حينئذ لنغزو كواكب أخرى، وأنّ البشريّة أو ما بعد البشريّة سوف تتوفّر لديها وسائل نقل لتنقلها إلى هناك. ولكن، في تلك اللّحظة بالذّات، سوف يدخل الجنس البشريّ غمار مغامرة جديدة.

لمستقبلنا القريب، هناك حاجة ماسّة إلى أن ندرك لا فقط حدود النّموّ، ولكن أيضا حدود العقل، وبالأخصّ حدود أداتنا المعرفيّة المجهّزة كأفضل ما يكون: وأعني بها العقلانيّة. لقد بيّن كارل بوبر Karl Popper[12] محدوديّة الاستقراء l'induction المتمثّل في القيام بعمليّة تعميم انطلاقا من عدد معيّن من الحقائق المعايَنة في أماكن شتّى. صحيح أنّ الاستقراء هو أسلوب مفيد جدّا للمعرفة، ولكنّه ليس بمعصوم عن الخطأ. وإلى جانب محدوديّة الاستقراء يجب أن نضيف محدوديّة الاستنتاج la déduction، أي محدوديّة العقل المطمئنّ كما أظهرت ذلك مبرهنات عدم الاكتمال لغوديل le théorème de Godel؛ ذلك أنّ أفضل أدواتنا المعرفيّة، الّذي هو العقل، محدود، كما هو حال المنطق الكلاسيكيّ المسمّى المنطق الأرسطيّ. فحين ننظر إلى العالم بطريقة عقلانيّة نقع في تناقضات لا يستطيع منطقنا التّغلّب عليها.

طرح التقدّم الّذي شهدته معرفتنا الفلسفيّة والايبستمولوجيّة مشكلة الحدود، غير أنّ الوعي بالحدود في حدّ ذاته هو وعي

(12) . فيلسوف مختصّ في علوم القرن العشرين، ولد بفيينّا في سنة 1902 وتوفّي بلندن في سنة 1994.

محدود. وإذا كانت عقلانيتنا محدودة، فإنّه بإمكاننا أن نفترض أنّ قدرات الدّماغ البشريّ غير المستثمَرة إلى حدّ الآن سترفع الغطاء عن القوى الذّهنيّة غير المعروفة حتّى الآن. لقد كان إنسان الكهوف l'homme Cro-Magnon يجهل أنّ له بالفعل نفس دماغ أرسطو وليونار ديفنشي وموزار وآينشتاين. أنّنا لا نعرف قوى العقل المستقبليّة، ولكن ما يمكننا قوله هو أنّها سوف تكون محدودة لأنّ الإنسان لن يكون لا إلها ولا سيّدا على العالم، ولكنّ مغامرته الرّوحيّة فضلا عن مغامرته الأنتروبولوجيّة لا يمكن أن تصوّرها.

ما هو مؤكّد هو أنَّ هذه المغامرةَ لا تخضعُ لقانون التّقدّم المزعوم القائل بأنّ التّقدّم العلميّ أو التّقنيّ أو الاقتصاديّ قادر على ضمان تقدّم بشريّ على الأصعدة الاجتماعيّة والفكريّة والأخلاقيّة معا، كما أنّ ثورة الخلاص الموعودة في نهاية القرن التّاسع عشر لن تحدث.

وممّا لا شكّ فيه أنّه على الرّغم من الشّكوك في الحاضر ومن تفاقم المشاكل العالميّة، إلاّ أنّ هناك نخبة تكنوقراطيّة اقتصاديّة تؤمن باطّراد النّموّ وتبني تفاؤلها هذا على نموّ المداخيل، ولكنّها نخبة تعيش في عالم منغلق على نفسه. فالمخاوف المتعلّقة بالحاضر تجرّ إلى الانغلاق النّكوصيّ على العرق أو الدّين أو القوميّة، ومن ثمّ تتفاقم الصّراعات، وينمو التّعصّب ها هنا والتّهوّر ها هناك. لا بدّ إذن من التّفكير مليّا في الشّروط والافتراضات المسبقة الّتي

نحاول من داخلها أن ننظر في المستقبل.

- دروس التّاريخ

إنّه لمن الأهمّيّة بمكان أن ندرك أنّ أسباب النّجاحات الّتي حقّقها كبار الفاتحين كانت هي نفسها الّتي أدّت إلى سقوطهم، هكذا كان الحال مع نابليون أو هتلر أو حتّى ألكسندر الّذي لم يستطع الذّهاب إلى أبعد من حوض نهر الهندوس واضطرّ إلى التّقهقر. ليست هشاشة الإمبراطوريات ظاهرة مقتصرة على العصور القديمة، فالإمبراطوريّة العثمانيّة تفكّكت في القرن العشرين، وكذلك الإمبراطوريّة النّمساويّة-المجريّة والاتّحاد السّوفييتيّ.

يرى علماء الاقتصاد ضيّقو الأفق أنّ أزمة عام 1929 قد تمّ التّغلّب عليها في سنتي 1936 و1937 بفضل حصول انتعاش اقتصاديّ، ولكنّهم ينسون أنّ هذا الانتعاش المشكوك فيه كان في حدّ ذاته مصحوبا بصعود اقتصاديات الحرب، وأنّ كوارث سنوات 1940-1945 وموت الملايين من البشر بسببها هي الّتي حلّت أزمة سنة 1929 الاقتصاديّة. فهل بإمكاننا أن نصدّق إذن أنّ أزمتنا الرّاهنة ستجد حلاّ؟ أم تراها ستقوم بتعديل نفسها بنفسها تدريجيّا؟ أم أنّها ستتفاقم؟ أم ستؤدّي إلى تفكيك أوروبّا؟

إنّ جميع الأحداث الهامّة في القرن الماضي وبداية قرننا هذا لم

تكن متوقّعة، بدءا من الحرب العالميّة الثّانية والثّورة البلشفيّة في روسيا والفاشيّة في إيطاليا وصعود هتلر إلى سدّة الحكم والاتّفاق الألمانيّ السّوفييتيّ وبيرل هاربور، مرورا بالثّورة الماويّة الّتي أعقبها قيام الصّين الشّيوعيّة-الرّأسماليّة، واعتداءات 11 سبتمبر، وصولا إلى الرّبيع العربيّ ثمّ الحرائق العربيّة. إنّ التّاريخ يعلّمنا أن ننظر إلى المستقبل باحتراس وقلق، وعلى حدّ قول ألدو إيكسلاي Aldou Huxley: «إنّ درس التّاريخ الأكبر هو أنّ البشر لا يتعلّمون من دروس التّاريخ». ليست المشكلة فقط أنّنا لا نتعلّم من دروس التّاريخ، بل كذلك أنّنا لا نتساءل عن هشاشة هذا التّاريخ البشريّ. ضف إلى ذلك جهلنا بتعقيد الوضع الإنسانيّ الّذي توضّحه هذه الفكرة الّتي صُغتها سابقا، الّتي مفادها أنّ الإنسان العاقل يستقطبه الإنسان المجنون – باعتبار أنّ قوّة حضور كلّ من العقل والجنون في البشريّة متساوية – وأنّ الإنسان الصّانع يستقطبه إنسان الدّيانات والأساطير.

كلّ هذا من شأنه أن يجنّبنا الوقوع في أيّ فكرة تبسيطيّة أو ثبوتيّة أو خطيّة عن المستقبل، كما أنّ الحاضر يمكنُ أن يؤثّر على رؤيتنا له: ذلك أنّ التّفاؤل يعمينا عن المخاطر، كما أنّ التّشاؤم يشلّنا ويساهم في وقوع الأسوأ. لذلك ينبغي على المرء أن يفكّر من خارج ثنائيّة التّفاؤل والتّشاؤم. أنا نفسي إنسان متشائل، وقد نأيت بنفسي عن هذه الفكرة القائلة بأنّ ما هو معقول سيفرض نفسه عاجلا أم آجلا. من المحتمَل أنّنا سنعي بالمخاطر المحدقة

ونتّخذ تدابير الخلاص في اللّحظة الأخيرة عندما نواجه خطرا مهولا، ولكنّ ما هو معقول لم يسبق أن فرض نفسه بنفسه أبدا، نظرا إلى الطّابع الأنتروبولوجيّ للإنسان العاقل-المجنون.

الحاضر الوحيد الّذي يمكن أن يهيّئنا للمستقبل هو إصلاح المعرفة والتّفكيرِ الّذي أسمّيه مركّبا، التّفكير الّذي لا يمنحنا العصمة من الأخطاء وإنّما يجعلنا نرتكب أقلّ ما أمكن منها، ونحمل أقلّ ما أمكن من الأوهام ومن التّهوّر، إنّه التّفكير الشّامل العالميّ. أنا كثيرا ما أقتبس من أرنستو ساباتو Ernesto Sabato صياغته التّالية: «إنّنا بحاجة إلى علماءِ عالَم mondiologues»، ذلك أنّ علماءَ المستقبلِ الحاليينَ ليسوا علماءَ عالَم، لأنّهم يقسّمون المستقبل إلى أجزاء صغيرة والحال أنّ ما يفيد وما يهمّ هو إدراك التّفاعلات والاستجابات الانعكاسيّة والتّداخلات.

في رؤية أبقراط للطّبّ، نجد هذه الفكرةَ الّتي مفادها أنّ لحظة الأزمة هي الّتي تسمح للطّبيب بتشخيص المرض، أي اللّحظة الّتي تظهر فيها الأعراض بشكل جليّ ممّا يسمح بالحكم بأنّه مرض الأنفلونزا مثلا أو مرض الكوليرا، ولكنّ الطّبيبَ الجيّدَ هو من يرى علامات ضعيفة حتّى قبل أن تصبح الأعراض واضحة جدّا. هناك إذن معرفة بطمّ طميمها تحتاج للتّطوير بدءا من تحليل الإشارات الضّعيفة الّتي تشير إلى الحيويّة والابتكار أو إلى التّدهور والموت.

على سبيل المثال، إنّ تطوّر الزّراعة الإيكولوجيّة في كلّ مكان تقريبا، على الرّغم من هيمنة الزّراعة وتربية المواشي الصّناعيتين حاليّا، هو في نظري مؤشّر من المؤشّرات الضّعيفة الّتي تسمح لي بأن ألمح إمكانيّة تحقيق مستقبل أفضل لإمدادات المدن بالأغذية وللحياة الرّيفيّة، ولكن على الرّغم من كثرة هذه المبادرات إلاّ أنّها لا تزال تعاني من تجاهل الدّول والسّياسات الّتي تفضّل زراعات المحصول الواحد وتربية المواشي والأسماك الصّناعيّة.

بالإضافة إلى ذلك، هناك إشارة قويّة جدّا وباعثة على القلق بعض الشّيء تفرض نفسها، ألا وهي عودة العنصر الدّينيّ التّقليديّ بعد انهيار الدّيانات العلمانيّة (ديانة التّقدّم وديانة الشّيوعيّة). لقد ترافقت هذه العودة مع انغلاق عرقيّ وقوميّ يُنعَت، بغباء شديد حسب اعتقادي، بالشعبويّة؛ أقول «بغباء شديد» لأنّ كلمة «شعبويّة» قد وُلدت في أمريكا اللاّتينيّة للدّلالة على حركات شعبيّة تشكّلت ضدّ الملاّكين العقاريين والدّكتاتوريات العسكريّة بداية من سنوات 1930-1940. ولئن شهدت هذه الحركات في كثير من الأحيان انقسامات أو تراجعا، إلاّ أنّها كانت مؤشّرا على ولادة جديدة. وبالتّالي فإنّ مصطلح «شعبويّ» غير ملائم ويعكس عجزنا عن العثور على المفردات المناسبة لتسمية الظّاهرة المدانة.

ربّما يستأنف الاقتصاد سيره الاعتياديّ بعد اتّباع وصفة العلاج التّقشّفيّة هنا وهناك، الوصفة القاسية على الشّعوب لا

على الأغنياء بطبيعة الحال ولا على أصحاب الأسهم الّذين تتضاعف أرباحهم.

فإذا لم يحدث ذلك، ستنبثق أزمة من أعماق التّطوّر التّاريخيّ، ليس في أوروبّا لوحدها، بل وفي جميع أنحاء العالم.

إنّ الأزمة الاقتصاديّة الرّاهنة هي، حسب رأيي، عنصر من أزمة متعدّدة الوجوه؛ أزمةُ حضارة وأزمةُ مجتمع وأزمةُ كوكب وأزمةُ بشريّةٍ عاجزة عن الوصول إلى مرتبة الإنسانيّة، وهذا ما يدفعنا إلى التّفكير في المستقبل بطريقة مختلفة. وفي هذا الصّدد، صاغ أندريه لوبو André Lebeau[13] تعبيرا في غاية الجمال حين قال: «إنّ الرّغبة في الحفاظ على مسار الأمور الحاليّ إلى أن يفوت الأوان، هي أكبر خطر تضع البشريّةُ نفسَها فيه».

عديدة هي السّيناريوهات الممكنة، وكلّها خاضعة لما تفسّره نظريّة الفوضى. ففي منظومة معقّدة، حتّى وإن كانت محدَّدَة سلفا من بدايتها، تؤدّي الاستجابات الانعكاسيّة المتبادلة les interrétroactions إلى انعدام إمكانيّة التّنبّؤ. فدورانُ الأرضِ حول الشّمس الّذي يبدو لنا في غاية الثّبات ليس هو نفسه ما كان عليه قبل بضعة ملايين من السّنين، ولن يظلّ كما هو الآن بعد بضع مئات الملايين من السّنين بسبب التّفاعلات فيما بين

(13) . André Lebeau (1923-2013) هو الرّئيس الأسبق للمركز الوطنيّ لأبحاث الفضاء والمدير العامّ السّابق للأرصاد الجوّية الفرنسيّة.

الكواكب.

إنّه من الصّعب التّنبّؤ بالمستقبل، ولكن مع ذلك هناك سيناريوهات يمكن تصوّرها.

- الكوارث المتلاحقة الّتي لا يمكن تداركها

- تباطؤ اقتصاديّ، مع الكثير من الفظاعات والكثير من الانتكاسات[14] وبعض مظاهر التّقدّم محلّيًا: قد يستغرق هذا المسار بعضا من الوقت لا يمكننا تحديد مداه... ويمكن أن نكون متفائلين ونقول: ربّما ستتحسّن الأمور بعد ذلك،

- كوارث متلاحقة من شأنها أن تؤدّي إلى حالة من الانتكاس الهمجيّ المعمَّم (يقدّم فيلم ماكس المجنون Mad Max عيّنة منها) مع احتمال حدوث انطلاقات جديدة للبشريّة في هذا المكان من العالم أو ذاك.

ينبغي أن نتصوّر نوعين من التّحوّلات، تحوّل بيولوجيّ ومعلوماتيّ وتقنيّ قد بدأ بعدُ وينطوي على أخطار كثيرة. وهو تحوّل واعد بالتّأكيد، ولكنّ وعوده لا يمكن أن تتحقّق إلاّ إذا اقترن بتحوّل إيتيقيّ وثقافيّ واجتماعيّ تحرّكه نزعة إنسانيّة

(14) . إمكاننا أن نتصوّر داعش وهي تحرق المكتبات وتدمّر المتاحف وتفجّر مراكز الأبحاث. لنذكّر بأنّ المسيحيّة قد دمّرت مكتبة الإسكندريّة .

متجدّدة على نطاق عالميّ[15].

يطلق على هذا التّحوّل من النّوع الأوّل اسم العَبْر بشريّة la transhumanité، وإيديولوجيته هي العبر إنسانيّة le transhumanisme الّتي نشأت في الولايات المتّحدة وهي آخذة في الانتشار اليوم في جميع القارّات. إنّ العبر إنسانيّة هي تنبّؤ بمستقبل الجنس البشريّ اعتمادا على مسار التّقدّم العلميّ والتّقنيّ الحاليّ، ولا سيما في العلوم التّكنولوجيّة أي في كلّ ما هو بيوتكنولوجي وتكنولوجي متناهي الصّغر nano-thechnologique، وكذلك في الإعلاميّة وفي الحقل الّذي يهتمّ في إطار العلوم الإدراكيّة بمعرفة الدّماغ بدقّة متزايدة. سيكون للبشريّة في المستقبل قدرات أكبر بكثير ممّا تتمتّع به البشريّة في الوقت الحاضر، ولا نقصد بذلك الإنسان الأرقى الّذي تحدّث عنه نيتشه، بل نقصد به بشريّة سيكون لديها قدرات عالية ويمكن تسميتها بما بعد البشريّة la posthumanité أو بالميتابشريّة la métahumanité. يشهّر البعض بما بعد البشريّة على أنّها إيديولوجيا ووهْم، والحال أنّها إمكانيّة ملموسة. ولكنّ الوهم الحقيقيّ هو في الاعتقاد بأنّ هذه الإمكانيّة ستضمن خلاص البشريّة في المستقبل، خصوصا من خلال اكتساب صفة الخلود.

(15) . انظر L'Humanisme régénéré, Edgar Morin, Seuil, 2005.

- حلم الخلود

إنّ ما يبدو ممكنا على المدى القريب هو إطالة عمر الكائن البشريّ في صحّة جيّدة، وحتّى في تجدّد دائم إلى أمد غير محدود، وما يسمح بافتراض ذلك هو جملة من التّطوّرات الّتي وقعت في المعارف والتّقنيات البيولوجيّة، بدءا من الاكتشاف الحديث للخلايا الجذعيّة في النّخاع الشّوكيّ أو في الدّماغ أو كذلك في الأنسجة. فهذه الخلايا الجذعيّة قادرة على إصلاح عطب جميع الأعضاء: وقد سمحت بالفعل بتجديد قلوب فئران، وعاجلا أم آجلا ستُنجَزُ تطبيقات خاصّة بالإنسان.

يُضاف إلى ذلك صناعة الأعضاء. لم يمرّ وقت طويل منذ أن توفّي أوّل رجل مجهّز بقلب اصطناعيّ، ولكنّها كانت التّجربة الأولى أيضا ويُعتَقَدُ أن القلب الاصطناعيّ والرّئة الاصطناعيّة والكلية الاصطناعيّة يمكن أن تكون بديلا للأعضاء الطّبيعيّة المصابة بالقصور.

ولا ننسى إمكانيّة إطالة التّيلوميرات les télomères، وهي أطراف من الكروموسومات تزداد قصرا مع التّقدّم في السّنّ، عن طريق التّدخّلات البيولوجيّة-الجينيّة. يمكن أن تؤدّي هذه التّدخّلات إلى تعديلات وراثيّة في أجسامنا، ولكنّها لا تزال قفزة في المجهول على غرار التّدخّلات الهرمونيّة على الدّماغ الّتي بإمكانها أن تطوّر من أداء قدرات معيّنة أو أن تعطّلها.

إنّ هذه الامكانات المختلفة تنعش الأمل في الخلود من جديد، وهي كلمة يساء استخدَامها لأنّ البشر لن يصيروا أبدا آلهة. فمن خلال تلك العمليات المتعلّقة بتجديد الشّباب يمكن خلق بشر مؤبَّدين démortalisés ولكن ما هم بمُخلَّدين immortalisés، فالموت لن يكفّ أبدا عن تهديد المؤبَّدين. ليس لدينا، ولن تكون لدينا، القدرة على القضاء على البكتيريا والفيروساتِ الّتي تهاجمنا، ولن نستطيع استبعاد مخاطر وقوع حوادث وهجمات وتفجيرات في مجتمع ينطوي على مخاطر تكنولوجيّة متزايدة، ولن نتمكّن من القضاء على كلّ المخاطر السّياسيّة ومنها خطر الجنون المميت، ولن نكون قادرين على تجنّب المخاطر القاتلة الّتي تحملها الطّاقة النّوويّة، بل ربّما ستكتسي جرائم القتل طابعا جديدا: إذ بدلا من مجرّد إطلاق بعض الرّصاصات من مسدّس في القلب أو في الدّماغ، سيكون من الممكن استخدام المنشار الآليّ لتقطيع جسد القتيل إلى أجزاء صغيرة.

كما لن يتمّ القضاء على البكتيريا والفيروسات، فهذه الأخيرة قادرة على التّحوّر وستظلّ كذلك، وكذلك البكتيريا قادرة على تحصين نفسها بمثيلاتها من خلال الاشتراك معها في جزيئات الحامض النّوويّ، وسوف تجد حيلا وخدعا للاستمرار في هزم تقدّم الطّبّ. من المهمّ أن نلاحظ أنّ معظم الأطبّاء وعلماء الأحياء في ستّينيات القرن الماضي كان يعتقدون أنّه قد تمّ القضاء نهائيّا

على البكتيريا بفضل المضادّات الحيويّة، وأنّه سيتمّ إيجاد الوسائل الكفيلة بالقضاء على الفيروسات سريعا.

ولكنّ ظهور فيروس نقص المناعة البشريّة وغيره من الفيروسات المتحوّرة مثل فيروس الأنفلونزا الّذي يتغيّر دائما بشكل غير متوقّع في كلّ سنة تقريبا، قد بدّد هذه الفكرة. أمّا فيروس أنفلونزا الطّيور وفيروسات كورونا les coronavirus وفيروس الإيبولا فقد غيّرت هي أيضا كلّ شيء، كذلك عودة البكتيريا المقاومة للمضادّات الحيويّة، مثل البكتيريا المسبّبة للدّرن الرّئويّ le bacille de Koch. إنّ البكتيريا لا تتواصل من خلال لغة خاصّة بها وحسب، بل هي قادرة أيضا على أن تتوحّد. وقد افترض علماء الأحياء أنّ العدد الهائل من البكتيريا الّتي تشكّل العالم البكتيريّ يمثّل جسما خارقا superorganisme في الهواء وعلى الأرض وتحتها وفي المياه، وأنّ هذا الجسم قد يكون متحكّما فينا دون أن ندري.

سيظلّ الوجود البشريّ وجودا هشّا، والأهمّ من ذلك أنّه سيبقى محكوما عليه عاجلا أم آجلا بالمبدأ الثّاني في الدّيناميكا الحراريّة ألا وهو التّحلّل. ولأنّ هذا المبدأ الثّاني حمّال موت، فقد تَمَّ إنشاءُ معهد في الولايات المتّحدة بنيّة إزالة الأنتروبيا l'entropie الّتي تتسبّب في التّفكّك والتبدّد. ومع ذلك، لن نقضي أبدا على العديد من المخاطر المميتة، بل سأجرؤ على القول إنّ الذّعر من الموت سيكون أكبر من الآن بلا شكّ، فنحن نعلمُ

أنّنا هالكون، أنّنا لن ننجو من الموت، ولكنّ حين نفكّر بأنّ الموت المؤجّل إلى أمد غير مسمّى يمكن أن يظلّ مهدّدا لوجودنا فإنّ حياتنا ستكون هكذا أليمة للغاية. وهذا من شأنه أن يؤدّي إلى مشاكل اجتماعيّة وديمغرافيّة: إذ سيتعيّن الكفّ عن التّناسل على نطاق واسع حتّى لا يتمّ إثقال الأرض بمواليد جدد، وسيكون ذلك نهجا محافظا بشكل رهيب يمكن أن يحول دون ولادة إبداعات جديدة قد يأتي بها المولود الجديد، وسيكون أيضا سببا في تعمّق الفوارق وأوّلها ظهور نوع جديد من التّفاوت بين المؤبَّدين والفانين، وهذا من شأنه أن يعمّق الفوارق بين الأقوياء والأغنياء المؤبَّدين من جهة، و"عموم النّاس" من جهة أخرى.

إنّنا نرى هذه الظّاهرة على أرض الواقع متجسّدة في الاتّجار بالأعضاء - إذ تُشترى كِلَى بؤساءَ في الهند والصّين وبلدان أخرى آسيويّة بأسعار زهيدة، ثمّ يتمّ بيعها بأسعار باهظة إلى أثرياء غربيين. ما يمكن أن يحدث مستقبلا هو ما حدث رمزيّا في العالم الفرعونيّ لمصر القديمة، حيث كان فرعون والنّبلاء يتمتّعون بالخلود وهم محنّطون في مقابر مريحة، بينما كان رعاياهم محكوما عليهم بالفناء، وربّما سوف يكون هناك صراع طبقات جديد بين المؤبَّدين والفانين الّذين سيطالبون بنصيبهم من الخلود. وعلاوة على ذلك، يمكن أن يزيد تأبيد حياة البعض من الاضطرابات الهائلة، السّياسيّة والسّوسيولوجيّة وغيرها، الّتي من المتوقّع حدوثُها في مستقبلنا المحتمَل. وحدَه نهجٌ جديدٌ للبشريّة، لا يزال

احتمال ظهوره ضعيفا للغاية حتّى الآن، بإمكانه أن يؤدّي إلى تعميم تأبيد الحياة بطريقة ديمقراطيّة.

بناء عليه، إنّ الإطالة من أمد الحياة دون خرف تستجيب دون شكّ لحاجةِ حضارة تشكو التّنمية الشّخصيّة فيها من بطء شديد؛ ففترة المراهقة في الغرب تمتدّ سوسيولوجيّا إلى سنّ تتراوح بين 25 و30 سنة- وهي فترة مازال المرء ندرس فيها ولم يحصل على وظيفة بعدُ ولم يتزوّج. ولهذا السّبب فإنّه من الصّعب جدّا أن يكتسب الخبرة الّتي تكفل له حياة هادئة ومكثّفة معا، فأنا شخصيّا مازلت لم أحصل بعدُ على الخبرة الّتي كان ينبغي أن أحصل عليها، ولذلك أرغب في تمديد حياتي بصحّة جيّدة.

إنّ تأبيد الحياة démortalisation يفترض وجود كائن ما بعد بشريّ posthumain يمتلك قدرات جديدة ويشهد عقله/ دماغه تطوّرا جديدا: وإذا كان هناك شيء في الكائن البشريّ لن يطاله التّغيير فلن يكون إلاّ وجدانه وحساسيته، ذلك أنّ العبر بشريّة لن تسلبنا قدرتنا على الشّعورِ والفرح والحزن والحبّ والصّداقة. ليس هذا إلاّ بديلا من البدائل الممكنة لما بعد البشريّ، وأمّا الرّبوتة robotisation فهي تشكّل بديلا آخر.

- **التّحكّم البشريّ في الآلات**

يعرف ذكاء الآلات ومهاراتها العمليّة تقدّما مطّردا، ولا

يمكننا أن نتنبّأ بمداه. وتسمح مساهمةُ الرّوبوتيّة في رفاهة الكائن البشريّ، من خلال الشّقق الذّكيّة والمدن الذّكيّة، بأن نلقي على عاتق البشر الآليين الكثير من الأعباء المضنية والصّعبة وأعمال التّحكّم والمراقبة الّتي نتجشّم عناءها؛ فلطالما قيل لنا إنّ هؤلاء البشر الآليين سوف يحرّرون البشر من كلّ ما يرهق كاهلهم، وهذا بالفعل ما يقومون به الآن بصفة جزئيّة.

ولكنّ وجود مستقبل روبوتيّ يثير العديد من المسائل، ومنها على وجه الخصوص المسألة الإيتيقيّة، لأنّ رَوْبتة robotisation العمل تؤدّي إلى إحالة عدد من البشر إلى البطالة. إنّ المستقبل الرّوبوتيّ يستحقّ أن يكون موضع تساؤل لأنّنا دخلنا فعليّا في عصر الذّكاء الاصطناعيّ، والمسألة الّتي لفّها الكثير من الغموض هي معرفة كيف يمكن أن يصبح الذّكاء انعكاسيّا، أي يعيد النّظر في نفسه ويصبح إدراكا. إنّ هذا ما يسمح به العقل البشريّ بفضل اللّغة التّي لولاها لكنّا قادرين على التّفكير، ولكن دون أن نعرف أنّنا نفكّر. فهل يمكن أن يحدث هذا مع الآلة؟ لا يبدو الأمر مستحيلا. بطريقة جدّ مشوّقة، يروي كتاب الخيال العلمي «في تدفّق القرون»[16] لكليفورد سيماك Cliford Simak قصّة روبوتات صنعها بشر ثمّ أصبحوا عبيدا لها، فيحاول هؤلاء أن يجدوا سبيلا لتحرير أنفسهم منها، وينجحون في ذلك في نهاية المطاف. إنّ هذه الأعمال الخياليّة العلميّة وكذلك مقالات مثل

(16) . Dans les torrents des siècles, Galaxie (4 numéros), 1953.

مقالة «وعي الآلات»[17] لغوتهارد غونتر Gotthard Günter، تنطلق من معضلة حقيقيّة في عمقها ألا وهي تطوّر التّقنية الهائل والمنفلت من عقاله إلى درجة تصبح معها هذه التّقنيّة نفسها قادرة على التّحكّم فينا. في هذا السّياق، يُعتبر شريط «ماتريكس»[18] مهمّا للغاية بطرحه لفكرة تتمحور حول آلة مركزيّة تتحكّم في البشر. يتوهّم هؤلاء أنّهم أحرار ولكنّهم في حقيقة الأمر شخوص آليّة تحرّكها الآلة الّتي هي نفسها لها جسم رجل شرطة مذهل. تتولّى ثلّة من البشر المتمرّدين تنظيم مقاومة تحت الأرض، يتزعّمهم بطل يحاول إنقاذ الحرّيّة البشريّة من براثن الآلة. إنّ هذا الفيلم الخياليّ العلميّ يتوسّع في فكرة مفادها أنّنا معرّضون لتهديد التّقنيات الّتي نعتقد أنّنا نتحكّم فيها والّتي من المحتمل أن تتملّكنا أكثر فأكثر.

إنّنا نعيش بالفعل في عالم تنتصر فيه الآلة بطريقة معيّنة، على غرار آلات الدّولة والآلات الاقتصاديّة الكبرى الّتي هي نفسها لا تخضع كثيرا لإرادة من يشرفون على تسييرها، بل تُطيع منطقها الخاصّ.

تُعتبَر الإنترنيت تجسيدا لذلك، فهي عبارة عن جهاز دماغيّ عصبيّ اصطناعيّ انتشر في العالم وأدّى إلى مضاعفة الاتّصالات. وهي، على غرار اللّغة البشريّة، تفضي إلى الأفضل كما إلى الأسوأ.

---

(17) .La Conscience des machines, L'Harmattan, 3e éd, 2008.

(18) . Matrix ، إخراج لاري وأندي فاتشوفسكي، 1999.

إذ تسمح، بطريقة جديدة تماما، بالوصول إلى المعلومات والمعرفة والحرّيات الّتي تحاول العديد من الدّول منعها، كما تسمح بالنّفاذ إلى الثّقافة دون مقابل أحيانا، وهو ما ترفضه العديد من القوى الاقتصاديّة. إنّها تمنحنا الحريّة من ناحية، وتتحكّم فينا من الناحية الأخرى. والواقع أنّ الأجهزة الكبرى الّتي تُستخدم للرّقابة، ونعني هنا الخواديم الكبرى les grands serveurs مثل غوغل، قد تكون هي نفسها خاضعة للرّقابة، كما يمكن للسّلطات الحكوميّة أن تقوم باعتراض المكالمات المتبادلة عبر الهواتف المحمولة أو الإنترنيت، علاوة على أنّه بإمكانها أن تتحكّم فينا من خلال الأقمار الصّناعيّة. فضلا ذلك، تسمح شبكة الإنترنيت لأولئك المعروفين باسم المبلّغين عن المخالفات بالكشف عن أسرار الدّولة، ويعتبَر جوليان أسّانج Julian Assange مؤسّس ويكيليكس أفضل مثال على ذلك. لقد تمكّن هذا العالم في الرّياضيات والمهندس في الإعلاميّة من فكّ رموز الشّيفرات السّرّيّة للبنتاغون والدّولة الأمريكيّة، وقام بنشر آلاف الوثائق السّرّية المتعلّقة بطرق عمل الجيش الأمريكيّ في العراق. وهكذا تمكّنَ عالمُ رياضيات موهوب من أن يفكّ شفرات أشدّ الأسرار سرّيّة للسّلطات الّتي تتحكّم فينا، ممتثلا لما أملاه عليه ضميره بنزع السّرّيّة عن وثائق تخصّ الدّولة.

بكشفهم للعلن عن معلومات ممنوعة على الشّعوب والأفراد، كالأسرار الخاصّة بصناعة الأدوية والأسرار البنكيّة والأسرار

العسكريّة والأسرار الدّيبلوماسيّة، يقوم أدوارد سنودن Edward Snowden، مهندس الإعلاميّة الأمريكي والموظّف الأسبق بوكالة الاستخبارات الأمريكيّة ووكالة الأمن القوميّ الأمريكيّ، وغيره من المبلّغين عن المخالفات، بفكّ الأسرار الغامضة وبالكشف عن أخطار انفلات التّكنولوجيا والرّبح. يجب إذن أن نقبل بفكرة أنّ كلّ شيء ممكن؛ فإذا كانت الإنترنيت تتدخّل إلى هذا الحدّ في وجودنا فإنّها ستكتسب بدورها تعقيدات وجودنا وخصائصه.

بما أنّ التّطوّر غيرُ خاضعٍ للتّوقّع، فإنّه من الضّروريّ أن نقبل بظهور إيمان جديد، وعقيدة جديدة، وديانة جديدة، واكتشافات جديدة، واختراعات ثوريّة جديدة، لأنّ المستحيل يمكن أن يحدث وسوف يحدث. إنّنا نعيش في خضمّ المغامرة المجهولة مع هذا اللاّمتوقَّع الّذي وصّفه الشّاعر الرّوسي فوزنيسنسكي Vosnessenski أحسن توصيف حين قال: «إنّك تبحث عن الهند فتجد أمريكا». سنبحث عمّا نريد أن نجده وسنجد ما لم نكن نبحث عنه. إنّ العبر بشريّة transhumanité تتطلّب تفكيرا في الوضع البشريّ وفي المغامرة البشريّة، ووعيا بالفرص والمخاطر الّتي ينطوي عليها التّعقيد الأنتروبولوجيّ. إنّها تستدعي مراجعة لما أسمّيه «الأنتروبولوجيا المركّبة» وإعادةَ النّظر فيها، أي في الإنسان العاقل والمجنون والصّانع والميثولوجي والدّينيّ.

تقتضي التّحوّلات البيولوجيّة والتّقنيّة والإعلاميّة قبل كلّ

شيء أن تكون مصحوبة بتحوّلات إيتيقيّة وثقافيّة واجتماعيّة تقوم بتعديلها ومراقبتها وتوجيهها، وإنّه لأمر مأساويّ أن نرى التّحوّل العبر بشريّ قد انطلق فعلا يدفعه المحرّك الثّلاثيّ العلميّ/ التّقنيّ/ الاقتصاديّ، في حين لا يزال التّحوّل الإيتيقيّ/ الثّقافيّ/ الاجتماعيّ الّذي تزداد ضرورته كلّ يوم في غياهب النّسيان. ومع ذلك، فإنّ هذا التّحوّل لا مناص منه لتجنيب سائر البشر المستعبَدين حكمَ نوعٍ جديدٍ من السّادة المالكين لجميع القدرات كالقدرة على إطالة أمد الحياة، وأيضا لتجنّب حكمِ الآلات المفكّرة الّتي سوف نعتمد عليها حتّى وإن كانت تعتمد علينا. إنّ هذا التّحوّلَ العبر بشريّ يجب أن تقوده قوى موضوعيّةٌ وإيتيقيّةٌ وذات تفكير منعكس على نفسه، ذلك أنّ القدرات العبر بشريّة سوف تكون قدرات لا إنسانيّة ما لم تكن تحت سيطرةِ بشريّةٍ أعادت شحن نفسها بأفضل ما في البشريّة.

(7)

التّفكير المركّب والتّفكير الشّامل

تطرّقت في الفصول السّابقة إلى مسألة التّفكير الشّامل من منظور الكون الفيزيائيّ أوّلا، ثمّ من منظور التّطوّر البيولوجيّ، وأخيرا من منظور البشريّة في سياقها التّاريخيّ. ونظرت بعد ذلك إلى العولمة محاولا أن أستنطق مستقبلا يتوارى عنّا، قبل أن أصل في الأخير إلى المشكلة الأساسيّة الّتي هي مشكلة الكلّ والجزء.

هناك بالتّأكيد مقاومة متزايدة لما يمكن أن نسمّيه التّفكير الاختزاليّ، أي التّفكير الّذي يختزل معرفة كلٍّ ما في معرفة الأجزاء الّتي يتشكّل منها، وهناك مقاومة أيضا «للمعرفة المجزّأة» الّتي يتمّ فيها تقسيم الحقائق الطّبيعيّة المترابطة إلى فروع وتخصّصات. وقد دعا البعض إلى ضرورة معارضة هذا الفكر الاختزاليّ أو التّجزيئيّ بفكر أطلقوا عليه صفةَ الكلّي holiste المشتقّة من فكرة هولوس اليونانيّة holos، والّتي تعني الكلّ.

ولكنّ عيب التّفكير الكلّيّ هو أنّه هو نفسه اختزاليّ، لأنّه يختزل المعرفة في كلّ معيّن فقط بدلا من اختزالها في العناصر المشكّلة

لكلٍّ مّا.

بيد أنّ ما سنتبيّنه لاحقا هو أنّ معرفة الكلّ لا تتطلّب فقط معرفة العناصر الّتي يتشكّل منها، بل أيضا الأفعال والاستجابات الانعكاسيّة الّتي تحدث باستمرار بين الأجزاء والكلّ عندما يكون هذا الكلّ نشيطا وحيّا، أي عندما يكون كلاّ اجتماعيّا، كلاّ بشريّا.

- **ضرورتنا الحتميّة الأولى هي التّحديد السّياقيّ**

إنّ أيّ نصّ من النّصوص، كما نعلم جيّدا، لا يكتسب أيّ معنى إلاّ من خلال علاقته بالسّياق. حتّى اللّفظة الواحدة في الجملة هي دائما متعدّدة الجوانب ومتناقضة ويتّضح معناها في حركة ذهاب وإياب بين معان مختلفة تباعا لانجلاء معنى الجملة تدريجيّا. فعندما يقومُ المرءُ على سبيل المثال بترجمة نصّ من لسان أجنبيّ، سيكون مجبرا على الانتقال جيئة وذهابا بين المعنى القاموسّي للكلمة والّذي هو معنى متعدّد، ومعنى الجملة الّذي يظهر ببطء إلى أن يجد المترجم المعنى الملائم للسّياق. بصفة تدريجيّة، تضيء الجملةُ الكلمةَ، وتضيء الكلمة والسّياق الجملة. ولكنّ التّحديد السّياقيّ وحده لا يعني التّفكير الشّامل. لذلك، لا بدّ من إعادة النّظر في مفهوم المنظومة، وهذا من شأنه أن يخلق بعض الصّعوبات.

لقد ابتكر لودفيغ فون برتالانفي[19] Ludwig Von Bertalanffy نظريّة المنظومات La théorie des systèmes عام 1937، وهو من طوّر في عام 1968 مفهوم «المنظومة المفتوحة» في كتابه «نظريّة المنظومات العامّة». يعتبر لودفيغ أنّ منظومة ما هي مجموعة، أي هي كلّ يتكوّن من أجزاء مختلفة عن بعضها البعض، وكلّما كانت هناك وحدة في التّنوّع وكان هناك تنوّع في الوحدة، ازدادت هذه المنظومة تعقيدا. أمّا أنا، فإنّني أستخدم كلمة «تنظيم organisation» بالإضافة إلى كلمة «منظومة»، لأنّ التّنظيم هو الّذي يحوّل مجموعة من الأجزاء إلى كلّ واحد.

يُعَدّ ويليام روس آشبي[20] William Ross Ashby أوّل من قام بتعريف التّعقيد قائلا: «هو درجة التّنوّع في منظومة مّا.»

في الواقع، إنّ الوحدة في إطار تنوّع مّا هي ما يجعل عبارتين متنافرتين غير قابلتين للانفصال، فمفهوم الوحدة يميل إلى رفض مفهوم التّنوّع، والعكس أيضا صحيح. وإنّ ما يثير الاهتمام هو أنّ خصوصيّة الطّبيعة البشريّة تكمن في وحدتها الجينيّة والفيزيولوجيّة والتّشريحيّة والوجدانيّة – فالبشر جميعا يشعرون بالألم واللّذّة والفرح ويبتسمون ويبكون...- لكنّ هذه الوحدة دائما ما يعبّر عنها أفراد مختلفون عن بعضهم البعض، وثقافات

(19) . Karl Ludwig Von Bertalanffy (1901 - 1972) ، عالم أحياء ومؤسّس نظريّة المنظومات العامّة.

(20) . طبيب نفسيّ ومهندس إنجليزيّ (1903 - 1972).

تختلف كلّ واحدة منها عن الأخرى. فالمفارقة الظّاهرة هي أنّ الوحدة تخلق التّنوّع، ولكنّ التّنوّع نفسه لا يمكن أن يزدهر إلاّ انطلاقا من الوحدة. إنّ هذه الفكرةَ مهمّةٌ جدّا في عصرنا العالميّ حيث تجد البشريّة نفسها اليوم مجتمعة في وحدة المصير، ولا بدّ بالتّالي من الاعتراف بالآخرين بوصفهم مختلفين عنّا وشبيهين بنا في الوقت نفسه. إذا رأينا الآخرينَ في اختلافهم عنّا فقط فإنّنا لن نتمكّن من فهمهم، وإذا رأيناهم في تماثلهم معنا فلن نتمكّن من فهم ما يشكّل فرادتهم واختلافهم.

- **تعريف «المركّب»**

تعني كلمة «complexus» «مترابطا» و«منسوجا معا». وبالتّالي، فإنّ التّفكير المعقّد هو تفكير يقوم بالرّبط من خلال التّحديد السّياقيّ، أي من خلال الوصل بالسّياق من جهة، ومحاولة فهم ما معنى منظومة مّا من جهة أخرى.

يسلّط التّفكير المركّب الضّوء على ما تعنيه اليوم هذه الكلمة الغريبة: الانبثاق émergence. إنّ الانبثاق هو أن تظهر صفاتٌ داخل كلٍّ واحدٍ منظَّمٍ لا تتوفّر في الأجزاء حين يُنظر إليها بمعزل عن بعضها البعض.

وكي يصبح التّفكير في المجتمع على نحو شامل أمرا ممكنا، فإنّه من الضّروريّ رؤية هذه العلاقة القائمة بين الأجزاء والكلّ

الّتي هي سمة من سمات التّعقيد على وجه التّحديد.

إنّ السّؤال المطروح إذن هو الآتي: ما هي المنظومة الاجتماعيّة؟

إنّها مجموعة من الأفراد الّذين يتفاعلون مع بعضهم البعض، ومن خلال هذه التّفاعلات تَشكَّلَ كلٌّ اجتماعيٌّ واحدٌ هو الّذي أنتج لسانا وأنشأ ثقافة، ثمّ ظهرت بعدَ المجتمعات الأثريّة الأولى الّتي كانت منظّمة ولكن بدون دولة، دولٌ وتشريعاتٌ وما إلى ذلك. إنّ هذه الصّفات الّتي انبثقت تؤثّر تبادليّا على الأفراد لأنّها تجعلهم قادرين على القراءة والكتابة والحساب بفضل الثّقافة واللّغة: إنّها توفّر من خلال التّربية كلّ المعارف الدّنيا الضّروريّة للتّحرّك داخلَ المجتمع. علاوة على ذلك، يشتمل الكلُّ على قدرات خاصّة بالأجزاء، يعتبرها منحرفةً أو جانحةً. صحيحٌ إذن أنّ الكلَّ هو شيء أكبر من مجموع الأجزاء وأقلُّ منها في نفس الوقت.

إنّ للمنظومات البشريّة والاجتماعيّة الحيّة تنظيما يبقيها في حالة استقرار بواسطة آليات تنظيميّة، وقد أبان نوربار فاينر Norbert Wiener عن هذه الآليات مستعملا تعبيريْ «الاستجابة الانعكاسيّة السّلبيّة»rétroaction négative و«الاستجابة الانعكاسيّة الإيجابيّة rétroaction positive».

الاستجابة السّلبيّة، أو ردّ الفعل السّلبيّ feed-back، هي

العمليّة الّتي يقوم التّنظيم الرّقابيّ عن طريقها بقمع الانحرافات والانزياحات والاضطرابات مستخدما الأدوات الضّابطة كالقوانين والشّرطة والقواعد وترسيخ القانون الاجتماعيّ في الأفراد.

يسمح الاستقرار الفيزيولوجيّ (l'homéostasie) بمحافظة الجسم البشريّ على درجة حرارة ثابتة وعلى توازن السّكّر في الدّم وغير ذلك؛ فالجسم منظَّم تماما كما بيّن ذلك والتر برادفورد كانّون Walter Bradford Cannon[21] في مؤلّفه «حكمة الجسد » The wisdom of the Body الّذي نُشر عام 1932.

أمّا الاستجابة الإيجابيّة، أو ردّ الفعل الإيجابيّ، فتكون عندما يتضخّم انحرافٌ ما ويهجم على أداء قواعد الاستقرار ويفضي إلى مسار مختلّ يمكن تسميته بالأزمة. وهذه الأزمة يمكن حلّها إمّا عن طريق استرجاع المنظومة السّابقة، حتّى لو كَلّفَ ذلك أحيانا مجازر مروّعة كما يحدث الآن في سوريا، أو عن طريق شيء جديد أكثر تعقيدا، سيخلق من جديد حالة جديدة من الاستقرار، أي حالة أكثر تعقيدا.

إذا كانت الاستجابة الإيجابيّة في النّظم الفيزيائيّة تؤدّي إلى الانفجار والتّفكّك، فإنّ ما يبدو في المنظومات الاجتماعيّة

(21). عالم فيزيولوجيا أمريكيّ (1871 - 1945).

والبشريّة مفكّكا للمجتمع يمكن أن يكون في الحقيقة خميرة لبلورة نمط اجتماعيّ جديد أو إصلاحا للمجتمع. إنّ الشّيء المدمّر تماما في العالم الفيزيائيّ يصبح عنصرا يمكن أن يكون مبدعا أو منتجا في العالم البشريّ.

- **الانحرافات**

لقد أثمرت الانحرافات ابتكارات عظيمة ذكرناها سابقا؛ فكانت الرّأسماليّة انحرافا داخلَ المنظومة الإقطاعيّة، وظهرت الاشتراكيّة بوصفها انحرافا في أوساط المفكّرين انطلاقا من فكر بعض المجهولين في ذلك الوقت، مثل ماركس وبرودون وغيرهما. فالتّاريخ إذن ليس نهرا عظيما يندفع نحو الأمام؛ بل هو مثل سلطعون يتحرّك جانبيّا. وعندما ينجح انحراف ما في ترسيخ نفسه، وفي خلق اتّجاه ما، يصبح هذه الاتّجاه قوّة تاريخيّة، ويحدث حينئذ تحوّل ما. لا بدّ إذن أن يقع حدث أو حادث من الدّاخل أو من الخارج لينطلق التّغيير.

قد يكون وراء هذا التّحوّل الشّامل حدث غير مرئيّ على ما يبدو بالنّسبة إلىٰ معاصريه؛ فأبحاث أنريكو فارمي[22] Enrico Fermi في الثّلاثينيات بإيطاليا عن إشعاع بيتا قد نُظِر إليها في البداية على انّها معرفة لإشباع فضول العقل، ولكن بمجرّد أن

(22) . Enrico Fermi (1901 - 1954)، عالم فيزياء نوويّة إيطالي-أمريكي.

دقّت الحرب طبولها، جعلت المعرفة بتركيبة الذّرّة كلاّ من فرنسا وألمانيا والولايات المتّحدة تعمل على تحرير هذه الطّاقة الهائلة بغية صناعة قنبلة من نوع جديد من شأنها أن تضمن لها الانتصار على الأعداء. وهكذا أدّى حدث هامشيّ في العلوم، حدث معرفيّ محض، إلى صناعة السّلاح الّذي سيغيّر وجه العالم بقدرته على إبادة البشريّة.

وهكذا يتوقّف يكفّ التّطوّر عن خطّيته، لأنّه تطوّر منفصل ومتّصل معا؛ فهو غالبا ما ينطوي على مكاسب وخسائر، من ذلك مثلا أنّ التّطوّر العلميّ الّذي أسفر في القرن التّاسع عشر عن تطوّر استخدام الفحم والبخار والصّناعة بدا إيجابيّا للغاية بما حمله من منافع ماديّة وتقنيّة، ولكنّه أفضى إلى ترحيل كلّ المزارعين البروليتاريين تقريبا إلى ضواحي المدن في إنجلترا أوّلا وفي فرنسا لاحقا، ومن ثمّ نطرح على أنفسنا السّؤال التّالي: أيّهما أهمّ، ما غنمناه أم ما خسرناه؟ إنّ الفلاحة الصّناعيّة، كما ذكرنا آنفا، تقتل وتقحل التّربة وتفاقم من المبيدات الحشريّة وتوفّر منتجات نمطيّة لا طعم لها. إنّها تمثّل تقدّما كمّيّا بقدر ما تمثّل خسارة نوعيّة مقارنة بالزّراعة التّقليديّة.

ليس الكائن الحيّ مجرّد منظومة منظّمة، بل هو كيان منظّم ذاتيّا. وقد فكّر بعض المفكّرين وعلماء الرّياضيات والحياة والفيزياء مليّا في مفهوم التّنظيم الذّاتيّ في السّتّينيات. وقد تبيّن أنّ

هذا المفهوم يحمل مفارقة كان هاينز فون فورستر Heinz [23] Von Foerster قد أحسن الإشارة إليها: وهي أنّ أيّة استقلاليّة ذاتيّة لكائن حيّ تتضمّن بالضّرورة تبعيّة للبيئة، لأنّ الكائن الحيّ لا يصرف طاقته من خلال نشاطه الخارجيّ فقط، بل من خلال أدائه الدّاخليّ أيضا. فرئتاه تتنفّسان، ودمه يتدفّق، وقلبه يدقّ دون توقّف، وهو بحاجة على الدّوام لتجديد طاقته، ولهذا يجب عليه أن يأكل ويشرب، وهذا ما يجعله معتمدا على العالم الموضوعيّ.

توجد مفارقةٌ أخرى تسمحُ لنا بفهم الفرق بين العالم النّباتيّ والعالم الحيوانيّ؛ فقد وَجدت النّباتاتُ الذّكيّةُ جدّا بسرعة كبيرة الطّريقة الّتي تسمح لها بالتقاط الطّاقة الشّمسيّة بفضل الاستيعاب الكلوريفيلي - ويكفيها بعد ذلك أن تمتصّ الأملاح المعدنيّة بجذورها. أمّا العالم الحيوانيّ الّذي لم يجد وسيلة لاستخراج الطّاقة من الشّمس، فقد كان مضطرّا لأكل النّباتات. وهكذا نمت عند الحيوانات المجبرة على البحث عن الطّعام سيقان وأجنحة وزعانف، وأصبحت كثيرة الحركة. وبالتّالي، سيتحوّل ذاك القُصورُ الّذي تعاني منه الحيوانات إلى قدرة على التّحرّك على الأرض وفي المياه وفي الهواء، وهذا ما يجعلنا مستقلّين ذاتيّا عمّا يسمّى بالطّبيعة الحيّة وتابعين لها في الوقت نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، هناك مبدأ التّأثير المرتدّ principe de

(23) . الم أسترالي-أمريكي (1911 - 2002)، مبتكر السّيبرنيطيقا الثّانية.

récursion الّذي يُعتَبر المنتَجُ بمقتضاه ضروريّا لإنتاج نفسه؛ فنحن في علاقتنا بذواتنا البيولوجيّة لسنا نتاج عمليّة تكاثر جنسيّ فقط، لأنّ عمليّة التّناسل هذه تتطلّب أيضا شخصين من جنسين مختلفين كي تستمرّ. وهذا يعني أنّنا منتَجون ومنتِجون في نفس الوقت، وبالتّالي فنحن داخلَ سيرورة تناسل تحتاج بدورها إلينا لتستمرّ سيرورتها. هناك مظهر آخر من مظاهر التّعقيد الحيّ كنت قد سمّيته حواريّا dialogique، لأنّه يتكوّن من آليات يمكن أن تكون متكاملة ومتعارضة في آن معا،

فنحن نتشكّل من مادّتين مختلفتين للغاية:

- الحمض النّوويّ المستدام الّذي ينتقل من جيل إلى جيل، ويعبر الزّمن.

- والبروتينات الّتي هي هشّة للغاية وتموت وتنتجها أجسامنا باستمرار.

تجسّدُ هاتان المادّتان، على اختلافهما، التّكامل بين عنصرين يشكّلان الحياة: بين الجانب الوجوديّ للحياة من جهة، أي العيش والاستمتاع، والجانب المنتِج للحياة من الجهة الأخرى، أي التّناسل. ولكنّ هذا التّكامل يمكن أن يفضي إلى تنازع. إذ يمكن أن يكون هناك تنازع في المسارات المكمّلة للاستمتاع الشّخصيّ وللتّناسل. فبعض النّاس، حتّى قبل صناعة حبوب منع الحمل وموادّ الإجهاض المختلفة، كانوا ينجحون في تجنّب ما

ينجرّ عن استمتاعهم الجنسيّ من عواقب إنجابيّة من خلال مقاطعة الجماع أو بطرق أخرى.

ولكنّ تعقيدنا لا يتوقّف عند هذا الحدّ، لأنّ تعديلنا الذّاتيّ يخضع لجانبنا الثّالوثيّ.

كلّما تعاملنا مع تطوّرات معقّدة تشتمل على العديد من العلاقات والتّفاعلات والاستجابات الانعكاسيّة والمنازعات والمنافسات إلاّ وكان انعدام اليقين حاضرا بقوّة أكبر. بإمكان المرء أن يكون على يقين من أنّ اثنين مع اثنين يساوي أربعة، وعلى يقين من أنّه حين يخضع لهذا العلاج الكيمياويّ سيحصل على هذه النّتيجة، ولكن بما أنّنا نحيا في مجتمع، وفي عالم، وفي كوكب، وفي عولمة، فإنّه ليس بوسع المرء أن يستبعد الشّكوك في المستقبل، بل وفي معرفة الحاضر أيضا. فالأحداث الّتي تظهر فجأة تتطلّب وقتا طويلا قبل أن يدرجهما الوعي والمعرفة فيهما، لا بدّ إذن من بعض الوقت ومن مسافة لفهمها. كان هيغل يقول إنّ طائر المنيرفا يحلّق في الغروب، وهو يعني بذلك أنّ البومة، طائر الإلهة أثينا، طائر الحكمة والعقل، يأتي دائما متأخّرا جدّا، أو ربّما بعد أن يسبق السّيف العذل.

فكم من مرّة في التّاريخ أثبتنا أنّنا كنّا مسرنمين (نمشي نياما) حقّا، كما كان الحال مثلا إبّان ما عشته في مراهقتي، في الثّلاثينيات والأربعينيات، حين كنّا نسير في غفلة منّا نحو الكارثة؟

ليس الغرض من التّفكير المركَّب القضاء على اللاّيقين، بل التّعرفّ عليه والاعتراف به وتجنّب الاعتقاد في وجود حقيقة كلّيّة. يقول تيودور أدورنو Theodor Adorno، الفيلسوف الكبير في مدرسة فرانكفورت، على الرّغم من أنّه قد نهل من الفكر الكلّيّ على يدي هيغل وماركس: «إنّ الكلّيّة هي انعدام المعرفة». فمن يعتقدُ أنّه يمسك بالكلّيّ هو مخطئ، ولا أحد بإمكانه القيام بذلك.

إنّ أيّ قرار، سياسيّا كان أم تجاريّا أم اقتصاديّا أم متعلّقا بالزّواج وما إلى ذلك، ينطوي على رهان مّا، أي على عدم يقين؛ فـ«إيكولوجيا الفعل» تعني أنّ الفعل يخرج عن سيطرة من قرّره بمجرّد أن يدخل في لعبة تفاعلات اجتماعيّة وسياسيّة وغيرها. قد ينقلب هذا الفعل على من بادر به، ويمكن أن يؤدّي إلى الفشل عوضا عن النّجاح المنشود. إنّ نابليون الثّالث، على سبيل المثال، هو من أعلن الحرب على بروسيا ظنّا منه أنّها ستكون لقمة سائغة، ولكنّ بروسيا هي من جعلت من فرنسا لقمة سائغة. يجب أن نؤمن بأنّ المعرفة ستظلّ غير مكتملة، ليس فقط لأنّنا لا نستطيع بلوغ اليقين المطلق في كلّ ما هو مركَّب وإنّما أيضا لأنّ لأيّ معرفة حدودها الدّماغيّة والذّهنيّة والفكريّة. إنّ المعرفة وإن كانت تشهد تقدّما إلاّ أنّها تزيد من الجهل بنفس القدر.

لقد حقّقَ علمُ الكونِ تقدّما عظيما منذ أن تمّ اكتشاف أنّ الكون يتمدّد وأنّ المتسبّب في ذلك ربّما كان حدثا انفجاريّا يسمّى

الانفجار الكبير Big Bang، غير أنّ هذا الاكتشاف أوجد جهلا متعدّد الأوجه: من أين جاء هذا الانفجار الكبير؟ هل من الفراغ؟ وكيف يمكن أن يخرج كون مادّيّ من فراغ؟ وما الفراغ؟ وإلى غير ذلك من الأسئلة. إذن، كلّما ازدادت معرفتنا بالكون ازداد غموضه مع المادّة الّتي لا تمثّل كما سلف الذّكر سوى 4٪ من طبيعته، ومع طاقة سوداء ضخمة ولا مرئيّة ومجهولة تدفع الكون إلى تبدّد قاتل. إنّ ما كسبناه من كلّ ذلك هو جهل واع بجهله، بينما كنّا من قبل في جهل لا يعرف شيئا عن جهله. لقد كسبنا معنى الغموض والمجهول.

هنالك فكرة مهمّة جدّا تخصّ المعرفة المركّبة، وهي أنّها معرفة تنطلق من حقيقة أنّ أيّة معرفة هي في حدّ ذاتها ترجمة متبوعة بإعادة تركيب. فالمعرفة الحسّيّة، على سبيل المثال، الّتي تأتي إلى العين عن طريق الفوتونات الّتي تصل إلى الشّبكيّة، تمرّ بعمليّة التّحوّل التّالية: يتمّ تحويل المؤثّرات الخارجيّة الّتي تمّ استقبالها إلى رمز ثنائيّ code binaire يمرّ عبر العصب البصريّ، وعلى الفور تعطي سلسلةٌ من التّحوّلات في الدّماغ لا تزال إلى الآن غامضة جدّا الإدراكَ، وهذا الإدراك ليس صورة فوتوغرافيّة، لأنّ الثّبات الإدراكيّ يعيد الأشياء البعيدة إلى حجمها الحقيقيّ بدلا من رؤيتها صغيرة كما هي في الصّورة الشّبكيّة.

إنّ لعمليّات التّرجمة وإعادة التّركيب هذه ما يماثلها في الإدراك والأفكار والإيديولوجيات وفي النّظريات والمعتقدات

وما إلى ذلك؛ فنحن محكومون بالتّرجمة، أي بخطر الوقوع في الأخطاء، ومحكومون بإعادة التّركيب أي بخطر الوقوع في اللّبس أو الأخطاء كذلك. وكما يقول المثل الإيطاليّ: «التّرجمة خيانة»، فقد تكون التّأويلات صحيحة بدرجات متفاوتة، غير أنّ هذه الفلسفة المسمّاة بالهرمونيطيقا (فلسفة التّأويل) تخبرنا بأنّنا محكومون بالتّأويل؛ فالدّماغ والذّهن دائما ما يعيدان تركيب الحقيقة. على سبيل المثال، تفلت الأشعّة تحت الحمراء والأشعّة فوق البنفسجيّة من حواسّنا، ولكن بإمكاننا الكشف عنهما بفضل التّكنولوجيا والعلم اللّذين يؤكّدان لنا وجود أشعّة تحت حمراء وأخرى فوق بنفسجيّة. ومع ذلك، هنالك حقائقُ أخرى لا تخضع لمنطقنا وعقلانيتنا.

- **معرفةُ المعرفة**

في محاضرة جديرة بالذّكر ألقاها **هوسّرل** Husserl في 7 ماي 1935 في الاتّحاد الثّقافي بفيينّا تتعلّق بما كان يسمّيه «أزمة العلوم الأوروبّيّة»، بيّن أنّ العلم البارع في معرفة أشياء خارجيّة هو عاجز تماما عن تصوّر ماهية الذّات العارفة، وماهية العالِم. مؤخّرا فقط، أصبح العلم موضوعا للدّراسة فيما يخصّ نظريّاته وتطبيقاته وأنشطة العلماء، فقد أمكن الانتباه بعد حادثة هيروشيما إلى أنّ العلماء قد تجاوزهم تقدّم الآلة العلميّة الّتي لم يعودوا قادرين على التّحكّم فيها. وبقدر ما كان العلم في القرن السّابع عشر بحاجة

حقيقيّة إلى تجنّب أيّ حكم قيميّ وأيّ حكم أخلاقيّ وأيّ حكم سياسيّ لئلاّ يكون خاضعا لسيطرة السّلطات، بقدر ما يبدو من هنا فصاعدا أنّ المعرفة يمكن أن تؤدّي إلى استخدامات مروّعة إذا لم يتمّ إخضاعها إلى ضبط إيتيقيّ.

من بين الممارسات الشّائعة النّظرُ إلى معتقدات القرن الماضي نظرة تستهزئ بالأخطاء والأوهام الّتي وقعت فيها، ولكن، كيف لنا أن نعلم اليوم أنّنا صرنا محصّنين ضدّ الخطأ والوهم؟ إنّ نظريّة اللّيبراليّة الاقتصاديّة الجديدة الّتي تدّعي أنّها نظريّة علميّة بدأت هي نفسها تظهَرُ بوصفها إيديولوجيا ووهما، فنحن إذن لا نفكّر أبدا في حقيقة أنّنا أكثرُ نزوعا إلى التّشهير بأخطاء وأوهام الماضي والحضارات الأخرى بدلا من أن نتساءل عن أخطائنا وأوهامنا الممكنة. فأيّة معجزة يا تُرى هاته الّتي ستجعلنا معصومين عن الخطأ؟

إنّ إعادة النّظر في المعرفة، وفي مصدرها، وفي الذّات العارفة، هي مكمّل ضروريّ لأيّة معرفة، بما في ذلك المعرفة الشّاملة. فالشّيء المركزيّ هو المبادئ الّتي ننطلق منها لتنظيم العالم الّذي نعرفه، هو ما يمكن أن نسمّيه «النّموذج le paradigme» الّذي يوجّه منظومات المعرفة والفكر. ذلك أنّ أفكارنا تمتثل لنموذج من الاختزال والفصل نحن غير واعين به، مع أنّه هو الّذي يوجّه منظومتنا التّعليميّة كلّها، ومنظومتنا المعرفيّة برمّتها، ومنظومة تفكيرنا بأسرها، ما عدا بعض الاستثناءات الهامشيّة. وعندما

نكون خاضعين لهذا النّموذج فإنّنا نرى كلّ الأشياء منفصلة عن بعضها البعض، وكلّ الأشياء مختزَلة في أبسط عناصرها، ونظنّ أنّ كلّ ما يتناقض مع هذه الرّؤية هو محضُ ثرثرة ومحضُ حماقة ومحضُ جنون. نحن نعيش إذن في عصر يحتاج إلى تغيير في النّموذج، وهذا نادرا ما يحدث في التّاريخ. والمقصود بتغيير النّموذج هو الاستعاضةُ عن الفصل بالتّمييز، وعن الاختزال بالرّبط: لا بدّ من التّمييز والرّبط في آن واحد.

إنّه نموذج التّعقيد.

ولكنّنا نعيش في فترة أسمّيها «**عصور ما قبل تاريخ العقل البشريّ**»؛ فأسلافنا العاقلون، سكنةُ الكهوف، لم تكن لديهم أدوات متطوّرة جدّا، ولكن كان لديهم نفس العقل، نفس الدّماغ الّذي لدى ماركس وآينشتاين وميكال أنجلو ورامبو وهتلر وستالين... فكيف لنا أن نعرف أنّنا قد بلغنا بقدراتنا الدّماغيّة والذّهنيّة والفكريّة درجة الكمال؟ لا شيء من ذلك سوى الغرور والعجرفة. ومثلما بيّن لويس بولك[24] Louis Bolk جيّدا عند حديثه عن سيرورة استمرار السّمات الطّفوليّة الّتي سبق أن تطرّقنا إليها، فإنّ حقيقة الكائن البشريّ هي أنّه كائن غير مكتمل. هذا ما ينطبق أيضا على عقل هذا العصر الحديديّ العالميّ الّذي نعرفه. إنّ ذلك مضرّا بالمعرفة والفكر للغاية، لأنّ المحن ومشاعر

(24) . عالم هولندي في الذّرّة والأحياء (1866 - 1930).

القلق بإمكانها أن تحيي التّعصّب والمخاوف وأحلك الظّروف الّتي قد تنشب فيها أشدّ الصّراعات فتكا وأكثر الانتكاسات السّياسيّة سوءا. لمواجهة هذه التّهديدات، نحن مطالبون بالبحث عن فكر منفتح أكثر، وشامل ومركّب في الآن نفسه. وعلينا أن نتفادى ما يسمّى «عقلنة»، أي تلك المنظومات المنطقيّة الّتي ليس لها مع ذلك أيّ قاعدة أو أساس، ونتجنّب العقائديّة، أي التصلّب في أفكارنا والامتناع عن وضعها على محكّ التّجربة. ينبغي أيضا أن نتخلّى عن عقلانيّة منغلقة على نفسها وعاجزة عن إدراك ما يستعصي على المنطق الكلاسيكيّ وعن فهم ما يتجاوز نطاقها، للنخرط بدلا من ذلك في عقلانيّة منفتحة تعرف حدودها وتعي ما ليس قابلا للعقلنة. يجب علينا أن نبذل جهدا لا هوادة فيه حتّى لا تنطلي علينا أوهام تحمل قوّة المعتقد الأسطوريّ، فنحن في هذا العالم المعولَم نواجه صعوبات التّفكير الشّامل الّتي هي نفسها صعوبات التّفكير المركّب.

إنّنا نعيش بدايةَ البدايةِ.

إدغار موران

التّفكير الشّامل

الإنسان وكونه

ما دمنا لا نعلّم البشر من هُمْ، ستظلّ معرفتنا بذواتنا تشكو من فجوة خطيرة إلى أبعد الحدود، ومن نقص شديد الضّرر، وإنّ هذا النّقص لمن أكبر مصادر الوقوع في الخطأ والأوهام عن أنفسنا وعن حيواتنا.

لقد تجاهلت قرونٌ من اهمجيّة، بما في ذلك تاريخُنا الحديث، إنسانيّةَ الآخرين، إنسانيّةَ مجموعةٍ عرقيّةٍ أخرى أو أصلٍ آخرَ أو ديانةٍ أخرى، وها أنّ هذه اهمجيّة تعود من جديد... لا شكّ في أنّ المعرفة المنمّة بالكائن البشريّ بكلّ ثرائه المركّب هي أمر ضروريّ ويمكن أن تساهم في تحسين العلاقات بين البشر، هذه العلاقات الّتي تعاني من اهمجيّة ليس فقط بين الشّعوب وبين الأديان، وإنّما أيضا وفي كثير من الأحيان بين النّاس حتّى في نفس المكتب وفي نفس الجامعة. تصبح العلاقاتُ همجيّةً عندما لا نفهم الآخرَ إلاّ من خلال الحكم عليه: «آوه، إنّه مجرّد أحمق! آوه، إنّه مجرّد وغد!»، أو عندما نحطّ من الآخر إلى مرتبة الكلب أو الخنزير أو الحثالة. فأعداء الفهم هم اللاّمبالاة والازدراء والكراهية، أمّا الفهم فيشتمل في الوقت نفسه على الاعتراف بالآخرين والشّعور بالإنسانيّة المشتركة معهم في كنف احترام اختلافهم.

ISBN: 978-603-387-085-5
9 786038 387085
WWW.PAGE-7.COM